

إبراهيم النعمة

علوم القرآن



دارالمأمون للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م



دارالمأمون للنشر والتوزيع

العبدلي - عمارة جوهرة القدس

تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧

ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن

E-mail: daralmamoun@hotmail.com

www.almamoun-jo.com

علوم القرآن

مقدمة

الحمد لله حمداً يبلغني رضاه، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد خير من اصطفاه، وعلى سائر أنبيائه ورسله وآله الطيبين وصحبه المخلصين الصادقين، وعلى من أتبع هداه إلى يوم الدين!

أما بعد:

فإن القرآن الحكيم هو آية الله العظمى، ومعجزته الكبرى، وحجته البالغة، ونوره الساطع، ودستور المسلمين الدائم، ومصدر الهداية والرشاد... به أنقذ الله الدنيا المعذبة من حياة التيه والضياع إلى السعادة المثلى، التي لا يجدها الإنسان إلا بهذا الدين. فلا عجب أن يكون القرآن وعلومه موضع عناية المسلمين، منذ أن أنزله الله على النبي محمد ﷺ وإلى أن تقوم الساعة.

لقد كانت علوم القرآن -وما زالت كذلك- من العلوم العظيمة الشأن، والجليلة القدر، إذ تتحدث في العلوم المتصلة بالقرآن كله. وفي هذه الرسالة الصغيرة، بحوث في مسائل مهمة في (علوم القرآن)، كتبتها لتكون مرجعاً لأفلاذ اكبادنا من طلاب المدارس والجامعات، ولتكون ثقافة عامة لكل مسلم، وبخاصة من يتصدى لدعوة الناس إلى الإسلام. ولقد حاولت كتابتها بأسلوب واضح؛ ليتيسر فهمها لدى القارئ، مبتعداً عن كثير من الآراء التي لم نجد لها سنداً صحيحاً، سائلاً الله وحده أن يلهمني الهداية والسداد، وأن ينفعني بما كتبت يوم الدين!

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات!

إبراهيم النعمة

علوم القرآن

العلوم: جمع علم، والمراد به: الفهم والإدراك. وقد أضيفت كلمة (علوم) إلى (القرآن) فصار هذا العلم يبحث في العلوم والمعارف المتصلة بالقرآن الكريم -كلها- كموضوعات: وحي الله إلى رسله، ونزول القرآن وجمعه، وأول ما نزل منه وآخر ما نزل، والمكي والمدني، ونزول القرآن على سبعة أحرف، وإعجازه، والمحكم والمتشابه فيه، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وترجمته إلى لغات العالم، وغير ذلك من العلوم... ولقد كان شأن علوم القرآن كشأن سائر العلوم الأخرى، لم تظهر في شكلها المتكامل الذي هو عليه اليوم دفعة واحدة، بل كانت مبعثرة في بطون الكتب هنا وهناك، ثم دونت في مصنفات خاصة تدل على علم بذاته شبيه بعلم مصطلح الحديث.

إن هذا العلم الجليل لم يصنف فيه قبل القرن الرابع الهجري - وإن كانت موضوعاته متوافرة في صدور العلماء- ويدل على هذا سؤال هرون الرشيد للإمام الشافعي عن علمه بكتاب الله؛ فأجاب الشافعي:

(إن علوم القرآن كثيرة، فهل تسألني عن محكمه ومتشابهه، أو عن تقديمه وتأخيرها، أو عن ناسخه ومنسوخه، أو عن مجمله ومفصله، أو عن أسباب نزوله)^(١)

ومن أوائل من أفرد لعلوم القرآن كتاباً خاصاً له أهميته: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وذلك في كتابه (فنون الأفيان في عجائب علوم القرآن) و (المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن). ثم ألف أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ كتابه (المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز).

وجاء بعده الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ هـ وألف كتابه (البرهان في علوم القرآن).

ثم جاء البلقيني المتوفى سنة ٨٤٢ هـ وقد ألف كتابه (مواقع العلوم من مواقع النجوم). أما السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ فقد ألف كتابه (الإتقان في علوم القرآن).

وكادت حركة التأليف تتوقف بعد ذلك، حتى جاء العصر الحديث الذي كثرت فيه المؤلفات في علوم القرآن.

(١) علوم القرآن تأليف الشيخ عبد الرحمن فرغل ص ٩ تحقيق الدكتور رشيد نعمان التكريتي، شركة الديوان للطباعة ٢٠٠٢.

المؤلفات في العصر الحديث

هناك اتجاهان في التأليف في علوم القرآن في العصر الحديث:
الاول: منهج العلماء الذين جمعوا موضوعات في علوم القرآن،
متبعين منهج العلماء المتقدمين: كالزركشي في برهانه، والسيوطي
في اتقانه، ومن تلك المؤلفات المهمة كتاب: (مناهل العرفان في
علوم القرآن) للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، و (مباحث في
علوم القرآن) للدكتور صبحي الصالح، و (مباحث في علوم القرآن)
تأليف مناع القطان، و (محاضرات في علوم القرآن) تأليف الدكتور
غانم قدوري الحمد، و (لمحات في علوم القرآن) تأليف د محمد لطفي
الصباغ، وهناك كتب اخرى كثيرة...
الثاني: مؤلفات في علم واحد من علوم القرآن أو مسألة من
مسائله مثل كتاب: (النبا العظيم) تأليف محمد عبد الله دراز، و
النسخ في القرآن) تأليف الدكتور مصطفى زيد، و (الاعجاز البياني
للقرآن) للدكتورة عائشة عبد الرحمن... وغيرها كثير.

القرآن الكريم

القرآن: هو كلام الله المعجز، المنزل على النبي محمد ﷺ باللفظ العربي، المكتوب بين دفتي المصحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس. وهو كتاب هداية للناس جميعاً عربهم وعجمهم، وهو كتاب خالد، لا يدخله شيء من التحريف أو التزوير أو الزيادة فيه أو النقص منه؛ لأن الله ﷻ هو الذي تكفل بحفظه فقال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ سورة الحجر/٩

لقد انزل الله هذا القرآن على رسوله محمد ﷺ، وتحدي العرب -وهم أرباب الفصاحة والبلاغة- أن يأتوا بمثله فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فعجزوا أيضاً. وهذا الإعجاز كان ولا يزال قائماً، وسيظل كذلك- إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: فلا يستطيع الإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، قال الله تعالى:

﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ سورة الإسراء/٨٨

إن هذا القرآن انزله الله مفرقاً حسب الوقائع والأحداث، ودون بين دفتي المصحف، ونقله جماعة عن جماعة بالتواتر، وتلاوته لون من ألوان العبادة التي يتقرب المسلم بوساطته إلى الله، فيكتب له الخير والثوبة.

ويحسن بنا أن نشرح شيئاً من هذا التعريف:
فقولنا: (كلام الله) الكلام: جنس يشمل كل كلام، وحين اضيف إلى الله تعالى خرج كلام غيره من البشر والجن والملائكة.
وقولنا (المعجز) يخرج بهذا القيد كلام الله الذي عبر عنه الرسول ﷺ بلفظه.

وقولنا: (المنزل على النبي ﷺ) يخرج كلام الله الذي انزله على أنبيائه السابقين كالنوراة والإنجيل والزبور والصحف، وما ألقاه إلى ملائكته من كلام ليعملوا به، لا لينزلوه على أحد من البشر.
وقولنا: (باللفظ العربي) خرجت بهذا القيد الترجمات إلى اللغات الأخرى، فإنها تسمى ترجمات تفسير القرآن ولا تسمى قرأناً.
وقولنا: (المكتوب بين دفتي المصحف) خرجت الأحاديث القدسية والأحاديث النبوية، التي أوحاها الله إلى رسوله ولم ينسبها النبي ﷺ إلى الله تعالى.

وقولنا: (المنقول بالتواتر) خرجت بهذا قراءات الأحاد.
وقولنا: (المتعبد بتلاوته) خرجت بهذا قراءات الأحاد والأحاديث القدسية.

أسماء القرآن وأوصافه

انزل الله تعالى عدداً من كتبه على عدد من رسله، وكل كتاب من كتبه له اسمه الخاص به: فأنزل التوراة على سيدنا موسى، والإنجيل على سيدنا عيسى، والزبور على سيدنا داود، والصحف على سيدنا إبراهيم وموسى. وأما القرآن الكريم، فقد أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ.
وللقرآن الكريم ثلاثة أسماء مشهورة هي: القرآن والكتاب والفرقان، وأشهرها الاسمان الأولان.
وهناك من العلماء من أحصى للقرآن خمسة وخمسين اسماً^(١)، وبالع بعضهم فأوصلها إلى نيف وتسعين اسماً^(٢). وعند التأمل فيها، نرى أن أكثرها أوصاف للقرآن وليست بأسماء، ومن هذه الأسماء والأوصاف:

- ١- القرآن: قال تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قُرْآنٌ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ سورة الإسراء/٩
 - ٢- الكتاب: قال تعالى: ﴿لَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ سورة الأنبياء/١٠
 - ٣- الفرقان: قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ سورة الفرقان/١
- أما الأسماء الغالبة عليه، فهي -كما ذكرنا-: القرآن والكتاب. يقول الدكتور محمد عبد الله دراز:

(١) ذهب إلى هذا أبو المعالي عزيزي بن عبد الملك المتوفى سنة ٤٩٤ هـ. ينظر: البرهان في علوم القرآن تأليف: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ٣٤٣/١، -خرج حديثه، وقدم له، وعلق عليه: مصطفى عبد القادر عطا الطبعة الأولى ١٤٠٨-١٩٨٨ دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان. والإتقان في علوم القرآن للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ١٧٨/١ بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤.
(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣٤٣/١.

(روعي في تسميته قرآناً كونه متلواً بالألسن، كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام . فكلتا التسميتين من تسمية شئ بالمعنى الواقع عليه)^(١).

ولقد وصف الله القرآن بأوصاف كثيرة-كذلك- منها:

١- نور: قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ

وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ سورة النساء/١٧٤

٢- هدى ٣- شفاء ٤- رحمة ٥- موعظة قال تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا

فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة يونس/٥٧.

٦- مبارك: قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي

بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ سورة الأنعام/٩٢ .

٧- مبين: قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ

مُبِينٌ﴾ سورة المائدة/١٥٠

٨- بشرى: قال تعالى: مُصَدِّقًا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى

وُنُورٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة البقرة/٩٧

٩- عزيز: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ

لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ سورة فصلت/٤١

١٠- بشير ١١- نذير: قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾

بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ سورة فصلت/٣-٤

١٢- مجيد: قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ سورة

البروج/٢١

١٣- الذكر: قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

سورة الحجر/٩

وكل تسمية او وصف للقرآن الكريم ورد في كتاب الله، فهو باعتبار معنى من معانيه

الفرق بين القرآن والحديث القدسي

- هناك عدة فروق بين القرآن الكريم والحديث القدسي منها:
- ١- القرآن الكريم كلام الله الذي أوحاه إلى محمد ﷺ بلفظه، وتحدي به العرب أن يأتوا بمثله فعجزوا، فقد وقع به التحدي والإعجاز. أما الحديث القدسي، فلم يقع به شيء من ذلك.
 - ٢- القرآن الكريم ينسب إلى الله ﷻ مباشرة، فيقال: قال الله تعالى، أما الحديث القدسي، فيروى مضافاً إلى الرسول ﷺ. فالرسول هو الذي يخبر به عن الله فيقال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ.
 - ٣- القرآن الكريم نقل كله بالتواتر: فهو قطعي الثبوت، أما الأحاديث القدسية، فإن أكثرها أخبار أحاد: فهي ظنية الثبوت. والحديث القدسي قد يكون صحيحاً أو حسناً أو ضعيفاً.
 - ٤- كل لفظ من ألفاظ القرآن، بل كل حرف من حروفه هو من عند الله، أما الحديث القدسي، فمعناه من عند الله، ولفظه من عند الرسول ﷺ على الصحيح: فهو وحي الله بالمعنى دون اللفظ.
 - ٥- القرآن الكريم متعبد بتلاوته، ولا تصح الصلاة إلا به، ويشيب الله على تلاوة كل حرف فيه ثواباً عظيماً، أما الحديث القدسي فلا تجزئ قراءته في الصلاة، ويشيب الله على قراءته ثواباً عاماً ولكن ليس كثواب تلاوة القرآن الكريم.

وحي الله إلى رسوله

معنى (الوحي) في اللغة: الإشارة السريعة، والإعلام الخفي السريع، بحيث يخفى على من يوجه لغير المخاطب، وعلى هذا جاء قوله تعالى:

﴿خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ سورة مريم/ ١١ أي أشار إليهم ولم يتكلم. ويدخل أنواع في هذا الإعلام منها:

- ١- الإلهام الغريزي: كالوحي إلى النحل، قال تعالى:
- ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ تَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلَفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ...﴾ سورة النحل/ ٦٨-٦٩
- ٢- إلهام الخواطر الذي يلقيه الله إلى بعض من الناس كالوحي إلى أم موسى، قال تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي
الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

سورة القصص/٧

٣- وسوسة الشيطان، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلِيَٰ أُولِيَآيِهِمْ لِيُجْدِلُوَكُمْ..﴾ سورة

الأنعام/١٢١

٤- الأمر قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ سورة

المائدة/١١١

٥- ما يلقى الله الى ملائكته من أمر، قال تعالى:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ

سَأَلِقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ..﴾ سورة الأنفال/١٢.

ونتأمل بوحى الله الى أنبيائه ورسله، فنرى فيه معنى الخفاء
والسرعة^(١).

ولم يكن رسولنا محمد ﷺ هو الوحيد من رسل الله الذين أوحى
الله إليهم، فقد أوحى إلى الرسل الذين جاءوا من قبله بمثل ما أوحى
إليه، قال تعالى:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ

وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٣٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ

قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ

مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ سورة النساء/١٦٣-١٦٤.

(١) الوحي المحمدي للشيخ محمد رشيد رضا ص ٤٤ طبعة المكتب الإسلامي-
بيروت-لبنان.

تعريف الوحي

الوحي: (أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر)^(١).

النبي والوحي

النبي: إنسان اصطفاه الله من الناس، واختاره لحمل رسالته، وأوحى له ما شاء من العقيدة والشريعة والأخلاق، وأمره بتبليغها. فالوحي أمر يتعلق بالله تعالى وحده، يوحى إلى نبيه ما يشاء في الزمن الذي يريده، ولا يد للنبي في أي جانب كان من جوانبه سوى تبليغ ما يوحى إليه. ولما قال النبي ﷺ لجبريل: يا جبريل، ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزل قول الله تعالى:

﴿وَمَا نَتَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾^(٢) سورة مريم/٦٤.

وحين نتلو القرآن الكريم، نرى أدلة كثيرة تنص على أن أمر الوحي متعلق بالله وحده، فلا يتحكم النبي في أي شأن كان من شؤنه.

أما أول الأدلة، فيتمثل بعدد من النوازل التي أصابت النبي ﷺ، وكان من أشدها حديث الإفك عن زوجه الطاهرة المطهرة المبرأة الصديقة عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) أحب زوجاته إليه، فقد افترى المنافقون عليها ما افتروا، وخدع بهذا الافتراء قسم من المسلمين، وتخرج موقف النبي ﷺ حين طعن بشرفه، وبذل جهده في التحري والاستشارة، وكان في غاية الشوق إلى نزول آيات تحسم الأمر وأبطأ الوحي عليه، وظل النبي الكريم شهراً كاملاً وهو يقلب وجهه في السماء من غير أن ينزل عليه شيء، وبعد تلك الأيام العصبية التي عايشها الصحابة مع نبيهم وهم يتقلبون على جمر الغضب، نزلت آيات سورة النور بتبرئتها: فما الذي يمنع النبي ﷺ لو كان القرآن من عند نفسه، أن يقول كلاماً ليحمي عرضه، ويميت حديث الإفك في مهده، وليخلص وصاحبه من ذلك الحرج الذي لم يصابوا بمثله؟!.

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ٦٣/١ دار الفكر.

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد (باب: قوله تعالى [ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين] ينظر فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٥٣٩/١٣ حديث ٧٤٥٥، الطبعة الثالثة ١٤٢١-٢٠٠٠، مكتبة دار السلام في الرياض ودار الفحاء في دمشق).

وأما ثاني الأدلة، فقد نزلت آيات القرآن تعاتب النبي ﷺ على قسم من مواقفه. من ذلك قوله تعالى في أمر زواجه من زينب بنت جحش ﴿وَتُحْفَىٰ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ

تُخْشَاهُ﴾ سورة الأحزاب/٣٧.

فقد ألهم الله رسوله محمداً ﷺ أن زينب بنت جحش ستكون له زوجة بعد أن يطلقها زيد بن حارثة، وأخفى النبي هذا في نفسه من غير أن يبوح به، لكن الأمر الذي خشي النبي ﷺ من مغيبته هو الذي أراد الله إظهاره.

فلو كانت آيات القرآن يحررها النبي ﷺ بنفسه، أو يتحكم في الأخذ بها لكتّم النبي الكريم ذلك -وحاشاه أن يفعل- فهو الصادق المصدوق وقد قالت السيدة عائشة (رضي الله عنها):

(لو كتّم رسول الله ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله لكتّم: [في

نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ])^(١).

وأما ثالث الأدلة، ففي قوله تعالى في شأن كبراء قريش وعبد الله ابن أم مكتوم:

﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَعْنَىٰ ﴿١٠﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿١١﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكُزَ ﴿١٢﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿١٣﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿١٤﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ سورة عبس/٥-١٠.

نزلت هذه الآيات تعاتب النبي ﷺ عتاباً شديداً؛ لأنه لم يهتم بعبد الله ابن أم مكتوم لما جاءه يسأله أن يعلمه مما علمه الله، والنبي الكريم مشغول بدعوة كبراء قريش الذين إن كتب لهم أن ينضووا تحت لواء الإسلام، فإن أعداداً كثيرة من أهل مكة ستنضوي تحت لوائه، فنزلت هذه الآيات التي فيها عتاب شديد على النبي ﷺ.

فلو كان النبي ﷺ يتحكم بالوحي -كما يفترى المفترون لما أعلن ذلك على الناس لأن في ستر هذا استبقاءاً لحرمة آرائه. وفي القرآن آيات أخرى في هذا المعنى. إنه النبي ينفذ أمر الوحي ولا يتحكم فيه.

(١) تفسير الطبري ١٣/٢٢. الطبعة الثانية ١٣٧٣-١٩٥٤ مطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة.

أنواع الوحي

يوحي الله إلى رسله بوساطة وبغير وساطة:

١- أمّا التي بغير وساطة فهي أنواع:
أ- الرؤيا الصادقة في المنام. فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت:

(أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)^(١). وكان هذا تهيئة لنزول الوحي على النبي ﷺ. ومن أمثلة ذلك أيضا رؤيا سيدنا إبراهيم في المنام أنه يذبح ولده إسماعيل وقد أراد مباشرة ذلك لولا أن فداه الله بذبح عظيم قال تعالى:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ

مَاذَا تَرَى قَالَ يَتَأَبَّتْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ.﴾ سورة الصافات/١٠٢.

لقد أدرك إسماعيل أنّ رؤيا الأنبياء وحي من الله يجب العمل به؛ لذلك قال: ﴿يَتَأَبَّتْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾، ولم يقل له: ما تحلم به أو ما تراه مثلا. فلو لم تكن رؤيا الأنبياء وحيا يجب إتباعه لما أقدم سيدنا إبراهيم مريدا ذبح ولده إسماعيل، ولما ردّ إسماعيل بقوله: ﴿يَتَأَبَّتْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾. ولا بد لنا أن نشير هنا إلى أنّ الرسول ﷺ لم يتلق شيئا من القرآن من هذا الطريق.

ب. الكلام الإلهي من وراء حجاب يقظة من غير وساطة: كما حدث لسيدنا موسى (عليه السلام)، قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ

إِلَيْكَ﴾ سورة الأعراف/١٤٣.

٢- وأمّا التي بالوساطة فهي بوساطة جبريل (عليه السلام)، وهي في صورتين:

أ- أن يأتيه الملك خفية من غير أن يراه أحد، فيظهر عليه أثر التغيير: فيأتيه مثل صلصلة الجرس والصوت القوي، وكان هذا أشد مراتب الوحي على النبي ﷺ:

ب- أن يأتيه في صورة بشر. وهذه أخف من سابقتها على النبي ﷺ. وهاتان الحالتان ذكرتا في حديث رسول الله ﷺ:

(١) رواه البخاري في باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ٣/١ مصورة دار الفكر عن دار الطباعة العامة باستانبول.

(أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول...) (١).
وتروي السيدة عائشة (رضي الله عنها) ما كان يُصيب الرسول ﷺ من شدة حين نزول الوحي فتقول:
(ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً) (٢).
والمراد بهاتين الحالتين القسم الثالث من أقسام التكليم الإلهي في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ سُرَّةٍ الشورى/٥١.

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي باب: كيف كان بدء الوحي على رسول الله ﷺ ٣-٢/١.
(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي (باب: ٢) حديث ٢. ينظر: فتح الباري ٢٤/١.

نزل القرآن

نص الله تعالى في كتابه على أن القرآن الذي نزل على نبيه محمد ﷺ جاء بلسان عربي مبين، وإن جبريل هو الذي نزل به على نبيه، قال تعالى:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٥﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٦﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٧﴾ بِلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ سورة الشعراء ١٩٥-١٩٦

وقال:

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ سورة النحل/١٠٢.

وقال:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ..﴾ (١) سورة البقرة/٢٣.

والمدة التي نزل بها القرآن على النبي ﷺ ما يقرب من ثلاثة وعشرين سنة، قال تعالى:

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ سورة الإسراء/١٠٦.

وواضح من هذه الآية: أن القرآن الكريم نزل على الله على رسوله مفرقا، على خلاف إنزال الكتب السماوية الأخرى: كالتوراة والإنجيل والزيور؛ فإن الله ﷻ أنزل كل واحد منها جملة واحدة ولم ينزلها مفرقة، وقد عجب الكفار من ذلك، فحكى الله تعالى قولهم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ سورة الفرقان/٣٢.

(١) التعبير القرآني بالتنزيل دون الإنزال يدل على أن القرآن نزل منجما وليس جملة واحدة. وقد قرر علماء العربية أن التنزيل لما نزل مفرقا والإنزال أعم. قال الراغب الاصفهاني: (الفرق بين الإنزال والتنزيل في وصف القرآن والملائكة: أن التنزيل يختص بالموضوع الذي يشير إليه إنزاله مفرقا، ومرة بعد أخرى، والإنزال عام).

المفردات في غريب القرآن للراغب الاصفهاني ص ٤٩١، راجعه وقدم له وائل احمد عبد الرحمن، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

عدد تنزيلات القرآن

ذهب جمهور العلماء الى أن للقرآن ثلاث تنزيلات:
الأول: الى اللوح المحفوظ
الثاني: الى بيت العزة في السماء الدنيا.
الثالث نزوله من بيت العزة في السماء الدنيا مفرقا في ثلاث وعشرين سنة، بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام.
وحيث نتأمل في أسانيد هذا التقسيم نجدها صحيحة كلها، بيد أن بعضاً من افذاذ العلماء لم يقولوا به، مستدلين بأن القول في هذه التنزيلات من عالم الغيب التي ما أطلعنا الله عليها، فلا يؤخذ بمثل هذه القضية إلا بما تواتر يقيناً في الكتاب أو السنة. فلا تكفي صحة الأسانيد إذا اختلفت مع ظاهر القرآن. فنحن نعتقد أن القرآن الكريم انزل في ليلة من ليالي شهر رمضان، بدليل قوله تعالى:
﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ...﴾ سورة البقرة/ ١٨٥.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ...﴾ سورة الدخان/ ٣.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ...﴾ سورة القدر/ ١.

كيفية نزول الآيات

١- أكثر آيات القرآن نزلت ابتداءً لترشد الناس إلى العقيدة الصحيحة في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وتتحدث في قصص الأمم مع أنبيائها وآيات المواعظ، والإخبار بالمغيبات.

٢- نزلت بعض آيات القرآن جواباً عن سؤال، أو تصحيحاً لأخطاء، أو تبياناً لحكم قضية وقعت في المجتمع. مثال ذلك قوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعُ لِلنَّاسِ﴾ البقرة/٢١٩.

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ البقرة/١١٧.

وروى البخاري قال: (صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: يا صباحاه. فاجتمعت إليه قریش قالوا مالك؟ قال: أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أويمسيكم أما كنتم تصدقونني؟ قالوا: بلى، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فانزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ...﴾^(١) سورة المسد ١-٥.

(١) فتح الباري ٨/٦٨٥

تنجيم القرآن

التنجيم في اللغة: التفريق. وتنجيم القرآن: نزوله مفرقاً على دفعات، قال تعالى:

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾

سورة الإسراء/١٠٦

قال أبو شامة المقدسي:

(فلما قطع الله سبحانه القرآن، وأنزله مفرقا قيل لتفاريقه نجوم)^(١).

موقف المشركين من التنجيم

شكك المشركون بالقرآن الكريم، محتجين بأنه لم يأت على سنن الكتب التي أنزلها الله من قبل، فقد كانت الكتب السماوية تنزل جملة واحدة، وأنزل هذا القرآن منجماً مفرقاً، وقد سجل القرآن ما قاله المشركون فقال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾

سورة الفرقان/٣٢.

ويفسر الآية أبو شامة المقدسي الدمشقي فيقول:

(فان قلت ما السر في نزوله الى الارض منجماً؟ وهلا انزل جملة كسائر الكتب قلت: هذا سؤال قد تولى الله جوابه - سبحانه - الجواب

عنه فقال في كتابه العزيز: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ

جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، يعنون: كما انزل على من كان قبله من الرسل،

فأجابهم الله تعالى بقوله: [كذلك] أي أنزلناه كذلك مفرقاً [لنثبت به فؤادك]: أي لنقوي به قلبك؛ فان الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك عليه، وتجديد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجنب العزيز؛ فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة؛ ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة نزول جبريل عليه السلام)^(٢).

(١) المرشد الوجيز لابي شامة المقدسي ص ١٨

(٢) المرشد الوجيز الى علوم تتعلق بالكتاب العزيز ص ٢٧-٢٨ تأليف شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المعروف بابي شامة المقدسي حققه: طيار التي قولاج. دار صادر ١٣٩٥-١٩٧٥.

حكمة تنزيل القرآن منجماً

كانت الكتب السماوية قبل القرآن- تنزل على الأنبياء جملة واحدة. أما القرآن الكريم، فقد نزل مفزاً حسب الوقائع والمناسبات: فتارة تنزل عليه سورة كاملة كما في سورة (الفاتحة) و(البينة) و(الكوثر) و(النصر) و(المسد) و(المعوذتين)^(١) وتارة تنزل عليه عشر آيات كما في حادثة الإفك، وتارة خمس آيات، وهكذا... وقد ذكر العلماء عدداً من الحكم في ذلك منها:

١- تثبيت فؤاد النبي ﷺ:

وقد صرح القرآن الكريم بذلك، فقال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ

لُنُفِثَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ سورة الفرقان/ ٣٢

وتتضوي تحت هذه الحكمة ما يأتي:

أ- تيسير حفظ القرآن لرسول الله ﷺ ومعرفة أحكامه.

ب- كل آية من آيات القرآن تنزل على رسول الله تحمل التحدي للعرب وهم أرباب الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بمثله.

ج- كان الرسول ﷺ يلقي من الشدائد ما يلقي وهو يبلغ رسالة الله، فكانت تلك الآيات تسليية له في صور كثيرة.

د - تنزيل القرآن منجماً فيه تربية دقيقة للرسول ﷺ والمسلمين معه.

٢- تيسير حفظه وفهمه للمسلمين:

وذلك أمر واضح يدركه كل أحد، إذ لو انزل القرآن جملة واحدة، لشق ذلك على المسلمين، ولصعب عليهم حفظه، فضلاً عن فهم معانيه، ويدل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنُزِّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾

سورة الإسراء/ ١٠٦

٣- مواكبة ما يحدث في المجتمع:

وتتمثل هذه الحكمة بصور كثيرة منها:

أ- التدرج بالأحكام: ليقبلها المسلم مسلماً بذلك ويعمل بها. فلو انزل القرآن دفعة واحدة لما تمكن في قلوب الناس ذلك التمكن، وربما ينفر من قبوله بعض الناس. وكمثال على ذلك: ما كان من أمر التدرج في تحريم الخمر، قالت عائشة (رضي الله عنها):

(إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل: فيها ذكر الجنة والنار، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً)^(٢).

(١) الإتيان ١٣٦/١

(٢) رواه البخاري في باب: تأليف القرآن. والمراد بالمفصل: قصار السور

ب- تحدث في المجتمع وقائع كثيرة، ويحتاج الناس الى معرفة حكمها، فتنزل الآيات مبينة تلك الأحكام، وهذه الوقائع تحدث مفرقة بين حين وآخر.

ج- تنبيه المسلمين لما يقعون به من أخطاء كما حدث في غزوة احد، اذ خالف الرماة وصية رسول الله ﷺ بعد تركهم المكان التي كانوا فيها، فحصل ما حصل من هزيمتهم هناك

د- فضح المنافقين وكشف أسرارهم؛ ليطلع المسلمون على مكابدهم فيأمنوا شرهم.

وأخيراً:

(لو أن القرآن كان قد نزل جملة واحدة، لتحول سريعاً الى كلمة مقدسة خامدة، والى فكرة ميتة، والى مجرد وثيقة دينية، لا مصدراً يبعث الحياة في حضارة وليدة. فالحركة التاريخية والاجتماعية والروحية التي نهض بأعبائها الإسلام لأسر لها إلا في هذا التنجيم)^(١).

(١) الظاهرة القرآنية تأليف: مالك بن نبي ص ٢٢٢، ترجمة عبد الصبور شاهين، طبعة منقحة بتقديم محمود محمد شاكر، دار الفكر.

نوعان من الإعجاز

يستطيع المتأمل في الدراسات القرآنية أن يتوصل إلى أن في القرآن الكريم أنواعاً كثيرة من الإعجاز، وسنقف أمام ثلاثة منها:
الأول: ظل البيان القرآني محافظاً على مستواه الرفيع في بلاغته العالية في كل سورة من سور القرآن الكريم، فقد جاء نظمه في قمة الحسن، ولم يجد العظماء والبلغاء تفاوتاً في فصاحة وبلاغة آياته، وهذه الظاهرة لا نستطيع أن نجد لها في غير القرآن الكريم، حتى في مجال البيان العربي، لا نجد فصيحاً واحداً استطاع أن يحافظ على مستواه الرفيع من غير أن ينحط عن منزلته الرفيعة، (ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابعة إذا رهب، وبزهير إذا رغب).

الثاني: إن سور القرآن نزل كثير من آياتها في أوقات متباعدة، والمتأمل في كل سورة من تلك السور، يجد التماسك والائتلاف بين آياتها، وكأنها أنزلت مرة واحدة ولم تنزل في سنوات عديدة. وما أروع ما دونه يراع الشيخ محمد عبد الله دراز -رحمه الله- فقد قال:

(أعند إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى - وما أكثرها في القرآن- فهي جمهرته، وتقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرتين: كيف بدئت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطأت أولها لآخرها؟.. وأنا لك زعيم بانك لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى).

ولسوف تحسب أن السبع الطوال^(١) من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أنه كلها أو جلها قد نزلت (نجوماً)^(٢).

(١) وإذا كانت هذه السور على طولها وكثرة نجومها لا يبدو عليها انفصال النظم، فما ظنك بما دونها إلى سور المفصل، حيث جرى التجسيم حتى في بعض القصار منها: كالضحى، وإقرأ، والماعون، والتي نزلت كل واحدة منها مفرقة إلى نجمين.

(٢) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٥٤. الطبعة الثانية ١٣٩٠-١٩٧٠. دار القلم/ الكويت

الآية والسورة

للفظ الآية عدد من المعاني اللغوية:

- ١ - فقد وردت بمعنى العلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ سورة البقرة/٢٤٨.
 - ٢ - وجاءت بمعنى المعجزة، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ سورة البقرة/٢١١.
 - ٣ - وجاءت بمعنى العبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً...﴾ سورة النحل/١١.
 - ٤ - وجاءت بمعنى الأمر العجيب ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ سورة المؤمنون/٥٠.
 - ٥ - وجاءت بمعنى الدليل والبرهان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللَّوْنِكُمْ﴾ سورة الروم/٢٢.
 - ٦ - وجاءت بمعنى الجماعة: تقول خرج القوم بأيّتهم أي بجماعتهم.
- أما لفظ السورة فله عدد من المعاني اللغوية، من أهمها أن السور يطلق علي ما ارتفع من الأرض. والتسور: هو الارتفاع من منزلة إلى منزلة، ومن ذلك قوله تعالى:
- ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ سورة ص/٢١.
- وسميت السورة سورة لرفعة شأنها وعظم شرفها. وعرفها العلماء بأنها طائفة من آيات القرآن، مسماة باسم خاص، لها فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات.

ترتيب الآيات

كان الرسول الكريم ﷺ إذا نزلت عليه آيات من القرآن، يدعو بعض من يكتب، طالبا منه أن يضع هذه الآية أو الآيات في سورة كذا بعد آية كذا. روى الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالسا إذ شخص ببصره ثم صوبه حتى كاد أن يلزقه بالأرض، قال: ثم شخص ببصره فقال: (أتاني جبريل عليه السلام فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة) **﴿إِنَّ**

اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ ^(١).

ونستطيع أن نرى تتابع الآيات في السور واضحة في تلاوة النبي ﷺ للسور في الصلاة وخارجها، وقد نقل الصحابة كثيراً من تلك الروايات، لذلك قال السيوطي: (الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك) ^(٢).

وقال جعفر بن الزبير: (ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين) ^(٣). وقال الباقلاني:

(.. وإن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمته الله تعالى، ورتبه عليه رسوله من أي السور لم يقدم من ذلك مؤخر ولا آخر منه مقدم، وإن الأمة ضبطت عن النبي ﷺ ترتيب أي كل سورة ومواضعها، وعرفت مواقعها، كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة) ^(٤).

لذلك لا يجوز ترتيب آيات القرآن ترتيباً جديداً وهذا بإجماع المسلمين.

(١) رواه الإمام أحمد ٥٤٦ / ١٣ حديث رقم ١٧٨٤٢، المسند للإمام أحمد شرحه حمزة أحمد الزين. الطبعة الأولى ١٤١٦-١٩٩٥، دار الحديث، القاهرة.

(٢) الإتيان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ٢١١/١.

(٣) الإتيان ٢١١/١-٢١٢.

(٤) الإتيان ٢١٥/١.

اسماء السور

أكثر سور القرآن الكريم لها اسم واحد، وقد يكون لها اسمان فأكثر، مثال ذلك سورة براءة التي تسمى بسورة التوبة، وسورة الأسراء وتسمى بسورة بني إسرائيل، وسورة غافر وتسمى بسورة المؤمن وسورة محمد وتسمى بسورة القتال، وسورة تبارك وتسمى بسورة الملك وهكذا....

١- سميت سور القرآن بما افتتحت به وما ذكر في أوائلها: كسورة الأنفال وسورة الإسراء. وهذه القاعدة ليست مطردة، فهناك خمس وثلاثون سورة في القرآن الكريم لم تسم بما افتتحت به مثل سور: البقرة، آل عمران، المائدة.....

٢- يطلق الاسم على السورة في بعض الأحيان- بما افتتحت به من حرف أو أكثر من حروف التهجي مثل:

سورة طه: ﴿طه﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى..﴿ سورة طه ١-

٢

وسورة يس: ﴿يس﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴿ سورة يس/١-٢.

وسورة ق: ﴿ق﴾ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴿ سورة ق/١-٢

٣- يطلق الاسم على السورة لموضوع مهم في السورة نفسها مثل سورة آل عمران، فقد قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى

الْعَالَمِينَ﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿ سورة آل

عمران ٣٣-٣٤.

وكذلك سورة التوبة التي تحدثت عن الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك ثم تاب الله عليهم.

٤- يطلق اسم السورة تبعا لمعجزة ورد ذكرها في السورة: كسورة البقرة، والمائدة.....

٥- يطلق اسم السورة تبعا لنبي كريم او مؤمن عظيم، مثال ذلك سور: يونس، هود، يوسف، إبراهيم، محمد عليهم الصلاة والسلام، وكذلك سور (مريم) و(لقمان).

هل أسماء سور القرآن توقيفية؟

قال السيوطي: (وقد ثبت أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار، ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك) (١).

كتابة أسماء السور في المصحف

قال الدكتور غانم قدوري الحمد: (ولم تكن أسماء السور تكتب في المصحف في الحقبة الأولى من تاريخ الإسلام، فكان يترك بين السورتين فراغ قدر سطر واحد) (٢)، ثم صار هذا الفراغ يشغل بخطين تزين ما بينهما دوائر، أو خط متعرج كالسلسلة، أو يترك ما بينهما خالياً (٣)، ثم صار الخطاطون يعتنون بزخرفة ما بين السورتين وصار يكتب في داخل تلك الزخرفة اسم السورة، وما يتصل بمكان نزولها وعدد آياتها (٤) وحافظ المصحف في عصر الطباعة على تلك الصورة لفواتح السور (٥).

أقسام السور

- ١- السبع الطوال: هي البقرة، وال عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال.
- ٢- المئون: وهي السور التي تزيد على مائة آية أو تقاربها، وهي تلي السبع الطوال.
- ٣- المثاني: وهي السور التي آياتها أقل من مائة آية. وسميت بذلك لتثنية الأخبار والقصص فيها.
- وتطلق المثاني على سورة الفاتحة لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ سورة الحجر/٨٧. والسبع المثاني سورة الفاتحة وفيها سبع آيات.
- وقد يسمى القرآن كله (مثنائي)، لأن فيه من الأخبار والقصص التي تثني.
- ٤- المفصل: وهي قصار السور. وسمي بذلك لكثرة الفصل بين السور.
- وأول سور المفصل:

(١) الإتيان ١/١٨٦.

(٢) موريتز: مجموعته المصورة (الباليوجرافية العربية) لوحة ١٧.
 (٣) ينظر: صلاح الدين المنجد: دراسات في تاريخ الخط العربي، شكل ٤٧ و٤٨ و٤٩ في الصفحات ٩٢ و٩٣ و٩٤.
 (٤) ينظر: موريتز: مجموعته الخطية لوحة ١-٢٢ أو ٣٣-٣٦.
 (٥) محاضرات في علوم القرآن تأليف الدكتور غانم قدوري الحمد ص ٨٧-٨٨. الطبعة الأولى ١٤٢٣-٢٠٠٣ دار عمار/ عمان الاردن.

- (الحجرات) أو (ق) أو (الصافات) أو (الصف) أو (القتال) أو (الملك) أو (الرحمن). وربما كانت سورة (ق) هي أول المفصل. أما آخر المفصل فهي سورة الناس. والمفصل ثلاثة أقسام:
- أ- طوال المفصل: وهو من (الحجرات) أو (ق) إلى (البروج).
- ب- أوساط المفصل: وهو من (الطارق) إلى (البينة).
- ج- قصار السور: وهو من سورة (الزلزلة) إلى آخر القرآن.

ترتيب السور

اختلف العلماء في أمر ترتيب السور: فذهب بعضهم إلى أنه توقيفي، أخذه النبي ﷺ عن جبريل، وأخذه جبريل عن الله، وظل القرآن منذ عهد النبي ﷺ إلى يوم الناس هذا مرتب السور والآيات على هذا الترتيب.

وذهب غيرهم: إلى أنه اجتهاد من الصحابة. وذهب آخرون إلى أن قسما من سور القرآن كان ترتيبه توقيفياً، وبعض السور الأخرى باجتهاد من الصحابة.

وكل قول من هذه الأقوال له أدلته التي اعتمدها؛ لذلك قال الباقلاني: (يمكن أن يكون الرسول ﷺ قد رتب سورته، وأن يكون قد وكل ذلك إلى الأمة بعده، ولم يتول ذلك بنفسه...)^(١)

ويرى ابن تيمية أن ترتيب السور لم يكن واجبا عليهم منصوصاً، بل كان مفوضاً إلى اجتهادهم، مستدلاً باختلاف مصاحف الصحابة^(٢)

أما ابن عطية، فيميل إلى (إن كثيراً من السور كان قد عُلم ترتيبها في حياته ﷺ: كالسبع الطوال، والحواميم، والمفصل، وأشاروا إلى أن ما سوى ذلك يمكن أن يكون فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده)^(٣)

والدارس لهذا الموضوع يتبين له أن جمع القرآن في الصحف كان في عهد أبي بكر الصديق ﷺ، وإن جمعه في عهد سيدنا عثمان لم يزد على أن كان نسخاً لتلك الصحف التي جمعت في عهد أبي بكر، وإن المصاحف التي تداولها الناس - ولا يزالون يتداولونها كذلك - منذ ذلك العهد وإلى يوم الناس هذا هي صورة طبق الأصل للصحف التي انتسخت في عهد سيدنا عثمان، والصحابة الكرام لم يختلفوا في تقديم سورة أو تأخيرها، وكل ما ورد من ذلك سؤال عبد الله بن عباس لعثمان عن سبب وضع البسملة في أول سورة التوبة؟ فأجابهم: أن ذلك كان متابعتاً لما فعله النبي ﷺ.

(١) الإتيان ٢١٥/١.

(٢) مجموعة الفتاوى لابن تيمية ٢٣٢/١٣ حققه وخرّج أحاديثه: خيرى سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

(٣) البرهان في علوم القرآن ٣٢٥/١.

يتبين لنا من هذا: أن الراجح في ترتيب سور القرآن كان توقيفياً، وأن ترتيبها ظل كما هو منذ عهد النبي ﷺ، وأنه -عليه الصلاة والسلام- كان يقرأ القرآن مرتباً هكذا، وكذلك صحابته الكرام

قال أبو بكر الأنباري: (أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا، ثم فرّقه في بضع وعشرين، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث والآية جواباً لمستخبر، ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع الآية والسورة. فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كلها عن النبي ﷺ. فمن قَدّم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن^(١))

وقال الكرمانى: (ترتيب السور هكذا هو من عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، وعليه كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه، وعرضه عليه في السنة التي توفي فيها مرتين، وكان آخر الآيات نزولاً: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ فأمره

جبريل أن يضعها بين آيتي الربا والدين^(٢))
وسواء كان ترتيب السور توقيفياً، أو اجتهداً من الصحابة، أو بعضها توقيفياً والبعض الآخر باجتهاد الصحابة، فإن ترتيب السور كما هو في المصحف واجب الإتيان، ولا يجوز لأي مسلم كان أن يرتبه على خلاف هذا الترتيب الذي انعقد الإجماع عليه، منذ عهد الصحابة حتى عصرنا الحاضر. فلا يجوز ترتيب سورته على أسباب النزول؛ لمخالفة ذلك للإجماع.

(١) الإتيان ٢١٧/١

(٢) الإتيان ٢١٧/١

جمع القرآن

يطلق لفظ (جمع القرآن) على معنيين.
الأول: بمعنى حفظه عن ظهر قلب. وفي هذا المعنى ورد قوله تعالى:

﴿إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ﴾ سورة القيامة / ١٧.

الثاني: بمعنى كتابته حروفاً وكلمات وآيات وسوراً، والقرآن الكريم تمت كتابته في الصدر الإسلامي الأول ثلاث مرات: الأولى: في عهد النبي ﷺ، والثانية: في عهد أبي بكر الصديق، والثالثة: في خلافة عثمان بن عفان، وسنتحدث في كل منها:

حفظ القرآن في الصدور

لما كانت الآيات تنزل على رسول الله ﷺ فإنه يقوم بحفظها، ويقرأها و يحفظها لمن عنده من الصحابة. وهكذا حتى جمع الرسول الكريم القرآن كله في قلبه. فكان هو أول الحفاظ. وكان عليه الصلاة والسلام يعرض القرآن على جبريل في رمضان في كل عام. فلما كان العام الذي قبض فيه النبي ﷺ عرضة مرتين. أما الصحابة الكرام، فقد اهتموا بحفظ القرآن كل اهتمام. ويدلنا على ذلك أن عدداً ليس بالقليل من صحابة رسول الله - رضي الله عنهم- كان قد حفظ القرآن كله، بل إن المرأة المسلمة كانت ترضى أن يكون مهرها سوراً من القرآن الكريم يُحفظها الزوج لزوجته. ويدلنا على كثرة حفاظ القرآن أن أربعين منهم قد استشهد في السنة الرابعة من الهجرة في حادثة (بئر معونة)^(١)، وقد استشهد منهم في عهد أبي بكر (يوم اليمامة) سبعون! وهكذا، فلم يلتحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، حتى كان حفاظ للقرآن الكريم كله.

(١) بئر معونة: بئر في نجد، يبعد ١٦٠ كم عن المدينة. وقد جاء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة إلى المدينة، فدعاه الرسول إلى الإسلام فلم يسلم و وعد أن يجير من يرسله لدعوة الأعراب في نجد، فأرسل الرسول وفداً من سبعين أو أربعين رجلاً من المسلمين. فلما وصل بئر معونة غدر بهم عامر بن الطفيل فقتل رسولهم فصاح فزت ورب الكعبة، وأحاط بهم الأعراب من رعل وذكوان، ودافع القراء عن أنفسهم، فاستشهدوا سوى عمرو بن أمية الضمري، عاد وأخبر الرسول الخبر.

كتابة القرآن الكريم في عهد النبي ﷺ

كان النبي ﷺ حريصاً على كتابة كل ما ينزل إليه من آيات، لذلك اتخذ عليه السلام كتاباً بلغ عددهم اثنين وأربعين كاتباً منهم الخلفاء الاربعة، ومعاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب.. وكان عدد كتاب الوحي في المدينة أكثر من كتاب الوحي في مكة^(١)، فكتب كتاب الوحي القرآن في العصب (وهو جريد النخل)، واللخاف (وهي صفائح من الحجارة) والرقاع (أي الجلد أو الورق)، والأكتاف (وهو عظام الكتف في الشياه أو الإبل)، والاقتاب (وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليتركب عليه)، والاديم (وهو الجلد المدبوغ)، وكان الصحابة يطلقون على هذه الأشياء بعد الكتابة عليها اسم (الصحف)، وكانت هذه الصحف توضع في بيت النبي ﷺ وكان من الصحابة من يكتب بعض سور القرآن لنفسه، تدلنا على ذلك قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذ دخل في بيت أخته فاطمة وزوجها، وكان خباب بن الأرت يقرئهما سورة (طه) في صحيفة مكتوبة. كما يدلنا على ذلك حديث: (نهى ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو)^(٢). أي يسافر بحمل صحيفة من القرآن الكريم. فلم ينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن كتب القرآن كله في السطور وحفظ في الصدور.

لماذا لم يأمر النبي ﷺ بجمع القرآن في حياته؟

- ذكر العلماء أسباباً لذلك، منها:
- ١- أراد النبي ﷺ أن يجعل الصحابة اهتمامهم بحفظه في الصدور، وترتيبه والتعبد به.
 - ٢- لم يكن هنالك داع لجمعه في مصحف واحد أو مصاحف، ذلك أن الداعي قد وجد في عهد أبي بكر وعثمان كما ستحدث في ذلك قريباً أن شاء الله: فقد كان حفظة القرآن كثرة كثرة....
 - ٣- كان جبريل عليه السلام ينزل على النبي ﷺ بعد أن أكرمه الله بالرسالة، ولم ينقطع إلا بوفاته صلوات ربي وسلامه عليه فلم يأمر النبي بجمع القرآن، لأن آيات كريمة أخرى قد تنزل مستقبلاً.

كتابة القرآن في عهد أبي بكر

قبيل أن يلتحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، ارتدت قبائل عربية كثيرة عن الإسلام، الأمر الذي جعل النبي عليه السلام يجهز جيشاً لمحاربتهم، ووضع على قيادته (أسامة بن زيد) رضي الله عنه، لكن الأجل لم يمهل النبي الكريم، فلبى نداء ربه، وتولى الأمر أبو بكر الصديق في

(١) التراتيب الإدارية للكتاني ١١٦/١ دار الكتاب العربي، بيروت.
(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد (باب: كراهية السفر بالمصاحف إلى أرض العدو)، ومسلم في كتاب الإمارة (باب: النهي أن يسافر بالمصحف إلى أرض العدو).

شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، فنفذ ما عزم عليه رسول الله من إرسال الجيش لمحاربة المرتدين ومدعي النبوات الكاذبة. وفي حرب اليمامة وحدها التي أذل الله فيها مسيلمة الكذاب وجمعه، كان قد استشهد من المسلمين (يومئذ) مائتان ألف، وقتل من حفاظ القرآن -آنذاك- سبعون. ولقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذا بصيرة نافذة فأقترح على أبي بكر أن يأمر بجمع القرآن. وبعد نقاش بينهما اقتنع أبو بكر بראي عمر، فكلف زيد بن ثابت بهذه المهمة قائلاً له:

(إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه)^(١).
ويصعب الأمر على زيد، إذ يشعر بعظم المهمة التي كلف بها فيقول:

(فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن)^(٢).
ولقد قام زيد ومعاونوه بهذه المهمة خير قيام: فنقلوا القرآن من تلك المفردات إلى صحف من نوع واحد بمقياس واحد تحفظ بين دفتين حفاظاً له، وما كتبت آية من آيات القرآن إلا بشاهدين، ليكون أوفى في التثبيت والتيقن. ولم يكتفوا بالحفظ وحده، بل كانوا يقابلون ذلك بما كتب. وقد تم جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه خلال سنة واحدة على وجه التقريب. ويأتي زيد إلى أبي بكر فيسلمه المصحف. ويحتفظ أبو بكر بذلك المصحف طوال خلافته. وقبيل موته عهد به إلى المرشح للخلافة من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وظل المصحف لدى سيدنا عمر طوال حياته، ثم سلمه إلى ابنته حفصة في آخر لحظات حياته، إذ لم يكن الخليفة الثالث قد بويع بالخلافة آنذاك.

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن (باب: جمع القرآن) ٩٨/٦

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن (باب: جمع القرآن) ٩٨/٦

جمع القرآن الكريم في عهد عثمان

اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، واتسعت حركة نسخ المصاحف في الأمصار، وذهب القراء في شتى الأقطار والأمصار يعلمون الناس القرآن وقد أخذ كل قطر بقراءة واحد من الصحابة ممن أقام بينهم: فكان أهل الشام يقرؤون بقراءة (أبي بن كعب)، وأهل الكوفة يقرؤون بقراءة (عبد الله بن مسعود)، ويقرأ أهل البصرة بقراءة (أبي موسى الأشعري). وكان بين القراء شئ من الاختلاف في وجوه القراءة وطريقة الأداء، إذ كان ذلك مرخصاً به في عهد الرسول ﷺ، لكن المسلمون الجدد لم يتفهموا حقيقة هذه الرخصة على وجهها الصحيح، فحصل نزاع وشقاق بينهم، وادعى كل فريق منهم أنه على الحق. وفي السنة الثانية والثالثة من خلافة سيدنا عثمان وهي سنة ٢٥ للهجرة أزمع المسلمون على فتح (أرمينية) و (أذربيجان)، فاجتمع هناك أهل الشام وأهل العراق، وكان (حذيفة بن اليمان) قائداً لأهل المدائن، فراعاه ما رأى من اختلاف المسلمين في وجوه القراءة، فاستعظم ذلك، وجاء إلى المدينة، ولم يدخل بيته حتى أتى أمير المؤمنين عثمان قائلاً له:

(يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى...) ^(١)

وكان قد وقع في نفس عثمان ذلك، بعد أن اختلف بعض المسلمين مع البعض الآخر في وجوه القراءة والأداء، فاستشار الصحابة في جمع الناس على مصحف واحد، فوافقوه على ما رأى، فقام بتشكيل لجنة لجمع القرآن من أربعة من أفاض حفظته وهم: (زيد بن ثابت) و (عبد الله بن الزبير) و (سعيد بن العاص) و (عبد الرحمن بن الحارث بن هشام). أما زيد، فهو مدني من الأنصار، وأما الثلاثة الآخرون، فهم قرشيون من أهل مكة. وطلب عثمان من أم المؤمنين حفصة إن ترسل له المصحف التي جمعت على عهد أبي بكر الصديق ففعلت. وبدأت اللجنة عملها، بعد أن رسمت لها منهجاً محدداً يتلخص فيما يأتي:

١- اعتمدت المصحف التي تم جمعها في عهد أبي بكر أساساً لنسخ المصاحف.

٢- اعتمدت لهجة قريش عند اختلاف اللجنة في كتابة شئ من القرآن.

٣- اعتمدت القراءة المتواترة عن النبي ﷺ وتركت ما سواها.

٤- التزمت اللجنة في ترتيب الآيات ترتيب النبي ﷺ في العرضة الأخيرة في السنة التي قبض فيها عليه السلام.

٥- بعد الانتهاء من كتابة النسخة الأولى من المصحف الإمام يقوم (زيد بن ثابت) بمراجعته ثلاث مرات، ويقابله بمصحف

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن (باب: جمع القرآن) ٩٩/٦.

أبي بكر، كما يراجع عثمان بنفسه، زيادة في الاحتياط، وذلك قبل نسخ المصاحف الأخرى.

عدد المصاحف

نسخت اللجنة مصاحف اختلف في عددها: فقليل أربعة مصاحف: أحدها إلى الكوفة، والثانية إلى البصرة، والثالثة إلى الشام، وأبقى عنده مصحفاً واحداً في المدينة. وقيل هي خمسة مصاحف أربعة إلى الأمصار المذكورة، وواحد للمدينة، وقيل هي سبعة: ستة أرسلت إلى الأمصار: الكوفة والبصرة والشام ومكة واليمن والبحرين، وواحد للمدينة.

ولم يكتف سيدنا عثمان بإرسال المصاحف إلى الأقاليم، بل أرسل في الأكثر الأغلب مع المصحف حافظاً: فكان زيد بن ثابت مقرئ المصحف المدني، وكان عبد الله بن السائب مقرئ المصحف المكي، وكان المغيرة بن شهاب مقرئ المصحف الشامي، وكان أبو عبد الرحمن السلمي مقرئ المصحف الكوفي، وكان عامر بن القيس مقرئ المصحف البصري.

أما الصحف الأخرى، فقد اقترح عثمان حرقها ليقطع النزاع، فأيده الصحابة، فأمر بحرق كل ما وجد من الصحف. يقول علي بن أبي طالب عليه السلام:

(لا تقولوا في عثمان إلا خيراً، فو الله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملامنا) ^(١)

ويقول: (لو وليت ما ولي عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل) ^(٢). لقد كان عثمان رضي الله عنه حكيماً في حرق ما تبقى من المصاحف عند الصحابة، ذلك أن بقاءها عندهم يزيد في أسباب الاختلاف والشقاق، وبخاصة حين يبتعد عهد الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) الإتيان ٢١٠/١ ومناهل العرفان ٢٦٢/١.
(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣٠٢/١ بتحقيق مصطفى عبد القادر عطا. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م دار الكتب العلمية بيروت. ومناهل العرفان ٢٦٢/١.

مقارنة

وحين نقارن بين جمع القرآن في عهوده الثلاثة نلاحظ ما يأتي:

١- كان الجمع في عهد النبي ﷺ يتلخص في كتابة الآيات وترتيبها، ووضعها في سورها. وظلت متفرقة في صحائف الحجارة والجلد وعظام الإبل والشيء والخشب... ويهدف هذا الجمع: التوثيق بالكتابة فوق حفظه بالصدور.

٢- يتلخص الجمع في عهد أبي بكر بنقل القرآن وكتابته في مصحف واحد بين لوحين خشية فقدان شيء منه بتلف أو ضياع.

٣- كان الجمع في عهد عثمان يتلخص في استنساخ عدد من المصاحف وتعميمها على الأقطار الإسلامية، بغية جمع الأمة على لهجة قريش، حفاظاً على توحيد كلمتها.

أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل

اختلف العلماء في أول ما نزل على الرسول ﷺ من آيات:
١- فذهب بعضهم إلى أنّ أول الآيات نزولاً هي الآيات الخمس الأولى من سورة العلق في قوله تعالى:

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ (٢) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

ودليل هذا ما روته السيدة عائشة (رضي الله عنها) قالت:
(أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ؛ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: [اقرأ باسم ربك الذي خلق...](١).
١- ذهب آخرون إلى أن أول الآيات نزولاً هي قوله تعالى:

﴿يَتْلُهَا الْمُدْثِرُ ۝ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ (٢) وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ...﴾ سورة المدثر ٥/١

ودليل هذا ما رواه البخاري وغيره، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل أول؟ فقال: ﴿يَتْلُهَا الْمُدْثِرُ﴾ فقلت: أنبئت أنه ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فقال: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله ﷺ. قال رسول الله ﷺ: جاورت في حراء، فلما قضيت جوارتي هبطت فاستنبتت الوادي فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني وعن شمالي، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض، فاتيت خديجة فقلت: دثروني وصبوا علي ماءً بارداً وانزل علي. ﴿يَتْلُهَا الْمُدْثِرُ﴾ (٢).

وقيل غير ذلك. والقول الأول هو الأصح.
أما آخر ما نزل من القرآن ففيه أقوال كثيرة، منها:
١- قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ

نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٣). سورة البقرة ٢٨١

(١) رواه البخاري في باب: كيف كان بدء الوحي إلى الرسول ﷺ ٣/١.

(٢) رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن (سورة المدثر) ٧٥/٦.

(٣) رواه النسائي وابن أبي حاتم. انظر: تفسير الطبري ١١٤/٣-١١٥ الطبعة الثانية ١٣٧٣ هـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي/مصر.

٢- آية الربا وهي قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ...﴾^(١) سورة البقرة/ ٢٧٨-٢٨٠

٣- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَآكْتُبُوهُ﴾^(٢) سورة البقرة ٢٨٢.

ويمكن الجمع بين هذه الروايات الثلاث: بأن نزول هذه الآيات كانت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف. فأية الربا، وأية (واتقوا يوماً) وأية الدين كلها وردت في قصة واحدة، وقد اخبر كل راو عما اعتقده بأنه آخر ما نزل^(٣).

٤- قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ...﴾^(٤) سورة النساء/ ١٧٦. وقد حمل ذلك على أنها آخر آية تتعلق بالمواريث.

٥- قيل: آخر ما نزل سورة المائدة^(٥). أي آخر سورة في الحلال والحرام.

٦- وقيل آخر ما نزل سورة (النصر)^(٦).... وهذه الأقوال كلها محتملة، وقد ذكرت من الرواة على سبيل غالبية الظن، إذ ربما كل من قال قولاً كان قد سمعه من النبي ﷺ قبيل مرضه الذي توفي فيه بقليل، مع أن غيره قد سمع منه غير ذلك، لنزول الوحي عليه بقرآن فيما بعد. وأرجح الأقوال: أن آخر الآيات نزولاً قوله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٧).

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير (باب: واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله)

(٢) انظر: الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي ١١٧/٢. الطبعة الأولى ١٤٠٣-١٩٨٣. دار الفكر بيروت.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن ٢٦٨/١.

(٤) رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن (باب: يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله)

(٥) الدر المنثور في التفسير المأثور ٣/٣.

(٦) رواه مسلم في كتاب التفسير/ حديث ٣٠٢٤ بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ٢٣١٨/٤.

(٧) لزيادة الاطلاع انظر: مناهل العرفان ١٠٠-٩٦/١.

فوائد معرفة أول الآيات نزولا وآخرها

- هناك فوائد في معرفة أول ما نزل من القرآن وآخره، منها:
- ١ - قضية التدرج بالأحكام والناسخ والمنسوخ. فإذا وردت آيتان في موضوع واحد، ويغاير حكم كل منهما الحكم الآخر، ولا يمكن التوفيق بين الايتين بأية طريقة كانت... عند ذلك تكون الآية المتأخرة ناسخة للآية المتقدمة.
 - ٢ - معرفة تاريخ التشريع الإسلامي، والوصول الى حكمة الإسلام في سياسة الناس.

المكي والمدني

اهتم المسلمون اهتماماً بالغاً بكل ما يتعلق بالقرآن الكريم. ومن جملة ما اهتموا به من علوم القرآن: هو جانب المكي والمدني. وينظر الناس في سنة رسول الله ﷺ فلم يجدوا شيئاً وردّ عنه عليه السلام في بيان المكي والمدني، ذلك أن الرسول الكريم لم يؤمر بتبليغه أولاً، ولأن الله سبحانه لم يجعل معرفة ذلك فرضاً من فرائض الإسلام... أما الصحابة الكرام، فلم يسألوا عنه، لأنهم عايشوا نزول القرآن، فوقفوا على ما سمي بأسباب النزول. فلا بد لنا أن نرجع إلى الصحابة أولئك الذين عايشوا نزول القرآن لمعرفة المكي والمدني. فهذا الصحابي الجليل (عبد الله بن مسعود) يقول: (والله الذي لا إله غيره، ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت)^(١) وظلت آيات القرآن تنزل على النبي ﷺ فيما يقرب من ثلاث وعشرين سنة، فكانت مدة العهد المكي ١٢ سنة و٥ أشهر و١٣ يوماً. وأما مدة العهد المدني فهي ٩ سنين و٩ أشهر و٩ أيام^(٢). وأما مجموع سور القرآن فهو ١١٤ سورة.

فما نزل من القرآن قبل الهجرة يسمى مكياً، وما نزل بعد الهجرة يسمى مدنياً. سواء نزل بمكة أم في المدينة، وسواء نزل عام الفتح أو عام حجة الوداع، وسواء نزل في سفر أو في حضر: فالزمان هو أساس هذا التعريف. فقله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ

دِينًا﴾ سورة المائدة/٣

قد نزل عشية عرفة في عرفات يوم الجمعة، عام حجة الوداع. ومع ذلك فقد اعتبرت هذه الآية على الأرجح مدنية.

(١) مناهل العرفان ١/١٩٦
(٢) علوم القرآن للأستاذ أحمد عادل كمال ص ٨٣. الطبعة الثانية ١٣٨٦-١٩٦٧ مطابع دار لبنان/بيروت.

ضوابط السور المكية

- ١- كل سورة فيها سجدة
- ٢- كل سورة فيها لفظ (كلا). وقد تكرر هذا اللفظ في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة، كلها في النصف الأخير من القرآن.
- ٣- إذا ورد في السورة لفظ (يا بني آدم).
- ٤- كل سورة ورد فيها (يا أيها الناس)، وليس فيها (يا أيها الذين آمنوا) فهي مكية إلا ما كان في أواخر سورة الحج فمختلف فيها وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا...﴾ سورة الحج/٧٧.
- ٥- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكية ما عدا سورة البقرة.
- ٦- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية إلا سورة البقرة.
- ٧- كل سورة مفتتحة بالحروف المقطعة مثل: (الم، حم/كهيعص) ونحو ذلك فهي مكية سوى سورتي البقرة وال عمران، واختلفا في سورة الرعد.

ضوابط السور المدنية

- ١- السور التي ورد فيها تفاصيل لأحكام الحدود والفرائض وأحكام الأحوال الشخصية.
 - ٢- السور التي ورد فيها مجادلة أهل الكتاب، ودعوتهم الى عدم الغلو في دينهم
 - ٣- السور التي ورد فيها ذكر المنافقين سوى ما ورد في سورة (العنكبوت) فانها مكية.
 - ٤- السور التي ورد فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكامه.
- وضوابط المكي والمدني جاءت على سبيل الرجحان لا التحديد القاطع.

فوائد معرفة المكي والمدني

- ١- لمعرفة الآيات المكية والمدنية فوائد منها:
- أولاً: الاستعانة بذلك في تفسير القرآن الكريم.
- ثانياً: معرفة الناسخ والمنسوخ، فتنسخ الآيات المدنية الآيات المكية عند تعارض المعنى في آيتين، وتعدر الجمع والتوفيق بينهما بأية طريقة كانت
- ثالثاً: الاستفادة في معرفة الآيات المكية والمدنية في أسلوب الدعوة الى الله اذ لكل مرحلة من مراحل الدعوة أساليبها.
- رابعاً: الوقوف على السيرة النبوية من خلال معرفة الآيات المكية والمدنية.
- خامساً: معرفة تاريخ التشريع.

سادساً: معرفة التدرج بالأحكام.

عدد السور المكية والمدنية

السور التي نزلت بالمدينة عشرون هي:
١- البقرة ٢- آل عمران ٣- النساء ٤- المائدة ٥- الأنفال ٦- التوبة
٧- النور ٨- الأحزاب ٩- محمد ١٠- الفتح ١١- الحجرات ١٢- الحديد
١٣- المجادلة ١٤- الحشر ١٥- الممتحنة ١٦- الجمعة ١٧- المنافقون
١٨- الطلاق ١٩- التحريم- ٢٠- النصر.
وهناك اثنتا عشرة سورة اختلَف فيها: فعدها بعضهم مكية،
وعدها البعض الآخر مدنية وهذه السور هي:
١- الفاتحة ٢- الرعد ٣- الرحمن ٤- الصف ٥- التغاين ٦- التطهيف
٧- القدر ٨- البينة ٩- الزلزلة ١٠- الإخلاص ١١- الفلق ١٢- الناس.
وما سوى ذلك فهي مكية وعددها اثنان وثمانون سورة.
وعندما نصف هذه السورة أو تلك بأنها مكية، فإن هذا لا يعني
أن جميعها نزل قبل الهجرة، فقد يكون بعض آياتها نزل بالمدينة: فقد
جاء الوصف على غالب آياتها. ومن أمثلة ذلك: سورة الأنعام، فإنها
مكية إلا آيات ثلاث نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ
حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ أَتْبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة الأنفال/ ٦٤ فقالوا:
إنها مكية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

نزل القرآن الكريم على سبعة أحرف

مقدمة

دعا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه المسلمين الى القرآن حفظاً وتلاوة، ونص في أحاديث صحيحة على أن تلاوة القرآن قرابة من أفضل القربات الى الله، لذلك سارع المسلمون الى حفظه وتلاوته. وبعد أن هاجر المسلمون الى المدينة، ودخل عدد من القبائل العربية في دين الله، صار بعض الناس من هذه القبيلة او تلك، يصعب عليه النطق نطقاً مطابقاً كل المطابقة لما كان ينطق به النبي ﷺ، اذ اعتادت ألسنتهم ان تنطق بلهجات قبائلهم التي نشأوا فيها، فكان أمر تحويل ألسنتهم الى نطق آخر ليس بالأمر اليسير. يقول ابن قتيبة:

(ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر ان يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً، لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة. فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعاً في اللغات، ومتصرفاً في الحركات...) (١).

الأحرف السبعة

ورد الحرف في اللغة بمعنى الوجه او الطريق. وأحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف وردت بأسانيد صحيحة عن أربعة وعشرين صحابياً من أجل الصحابة. ولكن اختلف في المراد بهذه الأحرف على خمسة وثلاثين قولاً (٢)، وقيل: على أربعين قولاً (٣). فقول المراد بالأحرف السبعة سبع لغات لسبع قبائل من العرب، وقيل: المراد سبعة أوجه من المعاني المتفقة بالألفاظ المختلفة نحو: أقبل، وهلم، وتعال... وقيل: سبعة أصناف من الكلام، وكل صنف يختلف عن غيره: فبعضها أمر ونهي، ووعد ووعد، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه... الخ، وقيل: لا يراد بالسبعة حقيقة العدد، وقد ذكر (العدد) هنا على سبيل الكثرة لا الحصر، والمراد: التسهيل والتيسير، وقيل غير ذلك...

وسبب هذا الاختلاف تلك الروايات التي يشوبها الغموض والإبهام: فلم تبين لنا تلك الروايات بوضوح نص الآيات التي اختلف في قراءتها، ولا نوع الخلاف في تلك القراءات: اهو خلاف صوتي يعزى الى تباين اللهجات أم هو شئ آخر؟

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٣٩-٤٠ شرحه ونشره السيد أحمد صقر.

الطبعة الثانية ١٣٩٣-١٩٧٣/دار التراث. القاهرة.

(٢) البرهان ٢٧١/١، وتفسير القرطبي ٤٢/١. الطبعة الثالثة عن طبعة دار الكتب

المصرية/دار الكتاب العربي ١٣٨٧-١٩٦٧.

(٣) الإتيان ١٦٤/١.

وهكذا تكون الآيات التي اختلفت في قراءتها مجهولة، وكذلك نوع الخلاف. وها نحن ندخل في الموضوع مستعينين بالله وحده، فنقول وبالله التوفيق:

معنى الأحرف السبعة

روى الإمامان البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرؤوا ما تيسر منه) (١).

وأحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف، رواها أربعة وعشرون صحابياً. بيد أن النبي ﷺ، لم يبين لنا المراد بالأحرف السبعة؛ لذلك اختلف العلماء بالمراد بها، حتى أوصلها بعضهم إلى خمسة وثلاثين قولاً (٢)، وأوصلها آخرون إلى أربعين قولاً (٣). وأكثر هذه الآراء لا يؤيدها نقل صحيح. وسنجمل ما قاله العلماء في الأحرف السبعة في اتجاهين، جاعلين تحت كل اتجاه أهم ما يندرج تحته من آراء.

الاتجاه الأول: أن المراد (بالأحرف السبعة) حقيقة العدد، إذ لا يعقل أن يكون العدد غير مقصود بقضية ذات صلة بالوحي وطريقة نزوله. ويبعد في هذا الأمر وأمثاله، أن يذكر الرسول ﷺ عدداً لا مفهوم له. لكنهم اختلفوا في المراد بتلك الأحرف السبعة وأهمها ما يأتي:

١- المراد بها سبع لغات (لهجات) من لغات العرب المتسمة بعبودية اللفظ وهي لغات: قريش، وهذيل، وتيم، والازد، وربيعة، وهوازن، وسعد بن بكر، وهذه اللغات (اللهجات) متفرقة في القرآن كله. وإلى هذا ذهب (أبو عبيد القاسم بن سلام) المتوفى سنة ٢٢٤هـ. وتبعه فيه (أبو حاتم سهيل بن محمد السجستاني) المتوفى سنة ٢٥٥هـ. على خلاف في ذلك- وأبو (منصور محمد بن أحمد الأزهرى) المتوفى سنة ٣٧٠هـ. وصحح هذا القول (البيهقي)، واختاره (عبد الحق بن عطية الغرناطي) المتوفى سنة ٥٤٣هـ.

وليس مراد أصحاب هذا القول أن كل كلمة في القرآن تقرأ بهذه اللهجات كلها، بل مرادهم: أن نزول القرآن لا يخرج عن هذه السبعة اللهجات، إذ الكلمة القرآنية: إما أن تكون بلغة قريش- وكثيراً ما تكون كذلك- أو بلغة قبيلة من القبائل المذكورة، إذ أن تلك الكلمات في تلك اللهجات، قد تكون أعذب مما في لغة قريش.

ولقد اعترض (ابن قتيبة) وغيره على ذلك التفسير، وقالوا: لم ينزل القرآن إلا بلغة قريش، مستدلين بقوله تعالى:

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن (باب: أنزل القرآن على سبعة أحرف ١٠٠/٦، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها (باب: بيان إن القرآن على

سبعة أحرف ٥٦٠/١).

(٢) البرهان للزركشي ٢٧١/١.

(٣) الإتيان للسيوطي ١٦٤/١.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ سورة

إبراهيم/٤

وقالوا: إن لغات العرب أكثر من سبعة، وليس لدينا ما يرجح لغة على لغة، فيكون تفسير سبعة الأحرف بسبع لغات تحكما بلا دليل. كما أستبعد (ابن عبد البر) هو كذلك أن يراد بالسبعة الأحرف سبع لغات (لأنه لو كان كذلك لم ينكر القوم بعضهم على بعض في أول الأمر، لأن ذلك من لغته التي طبع عليها. وأيضاً فإن عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم كلاهما قرسي، وقد اختلفت قراءتهما، ومحال أن ينكر عليه عمر لغته)^(١).

٢- المراد بالأحرف السبعة سبعة أوجه من المعاني المتفقة بالألفاظ المختلفة نحو: أقبل وهلم وتعال، وعجل وأسرع، وانظر، وأخر وأمهل... وقد ذهب إلى هذا-كما قالوا- (سفيان بن عيينة) المتوفى سنة ١٩٨ هـ و (عبد الله بن وهب) المتوفى سنة ١٩٧ هـ و (ابن جرير الطبري) المتوفى سنة ٣١٠ هـ و (أبو جعفر الطحاوي) المتوفى سنة ٣٢١ هـ. قال أبو جعفر الطبري:

(الأحرف السبعة التي أنزل الله بها القرآن من لغات سبع في حرف واحد وكلمة واحدة، باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني كقول القائل: هلم، وأقبل، وتعال، والي، وقصدي، ونحوي، وقربي، ونحو ذلك مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من المنطق، وتتفق فيه المعاني وإن اختلفت بالبيان به الألسن كالذي روينا أنفاً عن رسول الله ﷺ، ومن روينا ذلك عنه من الصحابة، وإن ذلك بمنزلة قولك: هلم، وتعال، وأقبل، وقوله: ما ينظرون إلا [زقية]، وإلا [صيحة]^(٢).

ويروي الإمام الطبري أن المراد بالأحرف السبعة هي سبع لغات في الكلمة الواحدة، وإن كل ما يقرؤه الناس الآن هو حرف واحد من الأحرف السبعة، وأما الأحرف الباقية، فقد تركت وكانها كانت رخصة مؤقتة^(٣).

ونقرأ ما نقل عن الصحابة في قراءاتهم التي بدلت فيها كلمة بأخرى ترادفها، فنجد أن تلك الأمثلة قليلة (ولم تنقل لنا كلمة واحدة في القرآن قرئت بسبعة وجوه، كل وجه يغاير الآخر في النطق ويوافقه في المعنى)^(٤).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه (فضائل القرآن):
(وليس معنى تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة أوجه، هذا شيء غير موجود)^(٥).

(١) البرهان في علوم القرآن ٢٧٨/١.

(٢) تفسير الطبري ٢٥/١.

(٣) تفسير الطبري ٢٨/١.

(٤) محاضرات في علوم القرآن للأستاذ غانم قدوري حمد ص ١١٨. الطبعة الأولى

١٤٠١-١٩٨١/ دار الكتاب للطباعة-بغداد.

(٥) محاضرات في علوم القرآن ص ١١٨.

وقال ابن قتيبة: (ولا نعرف في القرآن حرفاً واحداً يقرأ على سبعة أوجه) (١).
 وقال ابن عبد البر: (وهذا مجتمع عليه أن القرآن لا يجوز في حروفه وكلماته وآياته كلها أن تقرأ على سبعة أحرف، ولا شيء منها، ولا يمكن ذلك فيها، بل لا يجوز في القرآن كلمة تحتل أن تقرأ على سبعة أوجه إلا قليل مثل: [وعبد الطاغوت] و[تشابه علينا]...) (٢).
 ٣- المراد بالأحرف السبعة سبعة أوجه من القراءات المتفرقة في القرآن، بيد أنها لا تتوارد على الكلمة الواحدة، وقد ذهب إلى هذا (ابن قتيبة) فهو يقول:
 (وقد تدبرت وجوه الخلاف في القراءات فوجدتها سبعة أوجه: أولها: الاختلاف في إعراب الكلمة، أو في حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب، ولا يغير معناها نحو قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ وأطهر لكم. ﴿وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ﴾ وهل يجازى إلا الكفور.
 والوجه الثاني: أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا بَعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وربنا باعد بين أسفارنا... الخ.
 والوجه الثالث: أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ولا يزيل صورتها نحو قوله تعالى ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ وننشرها.
 والوجه الرابع: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتاب ولا يغير معناها نحو قوله ﴿إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً﴾ وإلا زقية. و ﴿كَأَلْعَيْنٍ﴾ وكالصوف.
 والوجه الخامس: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها نحو قوله تعالى: ﴿وَطَلَحَ مَنْضُودٌ﴾ في موضع (وطلح منضود).
 والوجه السادس: أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير نحو قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ وجاءت سكرت الحق بالموت.

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٢٧٨

(٢) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز لأبي شامة المقدسي ص ١٠.

والوجه السابع: أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلْتَ أَيَّدِيهِمْ﴾ وما عملته أيديهم^(١). وهكذا نرى (ابن قتيبة) يشير إلى إباحة الرسول ﷺ القراءة على سبعة أحرف.

الاتجاه الثاني

ليس المراد بالسبعة أحرف الحصر، بل المراد التيسير، والعرب تطلق لفظ (السبع) على إرادة الكثرة في الأحاد، ويطلقون لفظ (السبعين) على الكثرة في العشرات من غير إرادة المعنى المعين، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ سورة التوبة/ ٨٠ وهكذا الأمر في لفظ (السبعائة) الذي يراد به المبالغة والكثرة لا الحصر.

القول الرابع

والذي نراه راجحاً أن المراد بالأحرف السبعة هو اختلاف اللهجات، فقد نزل القرآن بعدد من لهجات العرب- وإن كانت لهجة قريش هي السائدة فيه- وكانت لهجة قريش تمثل القمة في الفصاحة، فكانت هي اللغة السائدة في المواسم والأسواق، وقد اتخذ عليّة القوم من غير القريشيين لغة قريش لهم في شعرهم وخطابهم وبياناتهم. فلم ينزل القرآن بلهجة قريش وحدها، إذ لو حصل ذلك لكان (القرآن) وفقاً على الذين يجيدون هذه اللغة دون سواهم. والذي يجعلنا نجنح إلى هذا الترجيح: أن عدداً من الصحابة قد اختاروا من القراءات التي سمعوها من رسول الله ﷺ ما يوافق لهجاتهم. فليس لأحد أن يقرأ القرآن بلغته كما يشاء ويهوى، إذ لو حصل ذلك لرأينا في القراءات العيوب الكثيرة في بعض لهجات العرب التي نقدها الفصحاء والبلغاء مثل الكشكشة في ربيعة ومضر^(٢)، والعننة في لغة قيس وتميم^(٣).

أما الدكتور عبد الصبور شاهين فيوسع في ترجيحه فيقول: (... فالذي نرجحه في معنى الأحرف السبعة ما يشمل اختلاف اللهجات، وتباين مستويات الأداء الناشئة عن اختلاف الألسن، وتفاوت التعليم، وكذلك ما يشمل اختلاف بعض الألفاظ، وترتيب الجمل بما لا يتغير به المعنى المراد)^(٤).

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٣٦-٣٩ بتصرف قليل واختصار.
(٢) كانت هاتان القبيلتان تجعلان بعد كل كاف الخطاب في المؤنث شيئاً فيقولون: رأيتكش وعليكش.
(٣) العننة: يجعلون الهمزة المبدوء بها عينا فيقولون في أن وأن: عن وعن.
(٤) تاريخ القرآن للدكتور عبد الصبور شاهين ص ٤٢/ دار القلم / القاهرة ١٩٦٦.

ويدلل علي ما يقول بأن الحروف السبعة التي أجيّزت قراءة القرآن بها لم تكن مقصورة على اللهجات العربية وحدها، بل تشمل لهجات المسلمين في بقاع الأرض كلها عند الضرورة. فإن الله ﷻ أرسل محمداً ﷺ إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، فلم يبعثه إلى العرب وحدهم، ولا إلى أقوام دون سواهم. وإذا علمنا أن من سمات هذا الدين اليسر ورفع الحرج، أدركنا أن إنزال القرآن على سبعة أحرف كان لرفع المشقة عن الناس: ذلك أن لغات العرب حين نزول القرآن كانت متباينة، وقد نزل أكثر القرآن بلهجة قريش، وقراءته بهذه اللهجة لا تتيسر - في بعض الحالات - للقبائل من غير قريش بسهولة. فكان من رحمة الله بالمسلمين الأوائل عدم تكليفهم فوق ما يطيقون، فسمح النبي ﷺ لكل قبيلة أن تقرأ القرآن بلغتها التي ألفتها من حيث اللهجة، أو الألفاظ، أو الأعراب إذا لم تستطع أن تقرأها بلهجة قريش. يقول ابن قتيبة:

(ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته وما جري عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً - لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعاً في اللغات، ومتصرفاً في الحركات...)^(١)

فهذا الهندي الذي يقرأ القرآن، وتختلف نبرات صوته في نطقه، لا يجوز لنا أن ننكر عليه قراءته، إذ قد بذل جهده في هذا المجال، فهو لا يقدر على أكثر من ذلك على أننا مع ذلك لا نعتبر قراءة الهندي أو غيره أنموذجاً يحتذى، بل سمح له أن يقرأ القرآن بلهجته تلك، للتيسير ورفع الحرج ليس إلا.

ومع هذا، فإن تلك الحاجة التي دعت إلى قراءة القرآن بالأحرف السبعة قد زالت في كثير من الحالات. فإذا قدر المسلم أن ينطق بالقرآن نطقاً قرشياً، فلا ينبغي له أن يعدل عن لغة قريش إلى غيرها من اللغات قال أبو جعفر الطحاوي:

(إن تلك السبعة الأحرف إنما كانت في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، وعاد ما يقرأ به القرآن إلى حرف واحد)^(٢) ولا غرابة فيما ذهب إليه الإمام أبو جعفر الطحاوي، فإن التركي في عصرنا هذا عندما يقرأ سورة الفاتحة لا يستطيع أن يلفظ حرفي (حاء) و (عين) كما يلفظها العربي، بل يجعل حرف الهاء مكان الحاء، والالف مكان العين، فيلفظ قوله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هكذا: الحمد لله رب الالمين.

(١) تأويل مشكل القرآن ٣٩-٤٠.

(٢) المرشد الوجيز لأبي شامة المقدسي ص ١٠٦.

الرخصة بين التلاوة والكتابة

ولا بد لنا أن نشير هنا إلى أن هذه الرخصة قاصرة على التلاوة فقط، ولم تشمل كتابة النص القرآني: فقد كان كتاب الوحي يكتبون ما يملئ عليهم النبي ﷺ بلهجة قريش، ويكتبونه كما هو. فلم تكن الكتابة كالقراءة على سبعة أحرف. وقد تمت كتابة القرآن في مكة بيد كتاب قريشيين، وفي المدينة بيد بعض من الأنصار، ولم يكن هناك فروق تذكر بين كتابة مكة والمدينة.

وينص ابن جرير الطبري في تفسيره على أن المصحف العثماني ما كتب إلا على حرف واحد فيقول:

(فحملهم- يعني عثمان بن عفان-... على مصحف واحد وحرف واحد، وحرق ما عدا المصحف الذي جمعهم عليه، وعزم على كل من كان عنده مصحف مخالف المصحف الذي جمعهم عليه، أن يحرقه، فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت أن فيما فعل من ذلك الرشد والهداية... فلا قراءة اليوم للمسلمين إلا بالحرف الواحد الذي اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية)^(١)

ويقول (ابن قيم الجوزية) وهو يعرض سياسة الإسلام في بعض النواحي:

(ومن ذلك: جمع عثمان رضي الله عنه الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة التي أطلق لهم رسول الله ﷺ القراءة بها لما كان ذلك مصلحة. فلما خاف الصحابة -رضي الله عنهم- على الأمة أن يختلفوا في القرآن، ورأوا أن جمعهم على حرف واحد أسلم وأبعد من وقوع الاختلاف: فعلوا ذلك، ومنعوا الناس من القراءة بغيره. وهذا كما لو كان للناس عدة طرق إلى البيت وكان سلوكهم في تلك الطرق يوقعهم في التفريق والتشتت، ويطمع فيهم العدو، فرأى الإمام جمعهم على طريق واحد، فترك بقية الطرق: جاز ذلك، ولم يكن فيه إبطال لكون تلك الطرق موصلة إلى المقصود، وإن كان فيه نهى عن سلوكها لمصلحة الأمة)^(٢)

وهكذا كانت كتابة المصاحف بعيدة عن أي أثر كان من آثار رخصة الأحرف السبعة: لذلك ترك الناس كل قراءة مخالفة لتلك المصاحف التي عممت في الأمصار في زمن سيدنا عثمان.

(١) تفسير الطبري ٢٨/١

(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن قيم الجوزية ص ١٨-١٩ بتحقيق محمد حامد الفقي/ مطبعة السنة المحمدية- القاهرة ١٣٧٢-١٩٥٣.

بين القراءات السبع والأحرف السبعة

تختلف القراءات السبع عن الأحرف السبعة. يقول أبو شامة المقدسي:

(ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل)^(١)

ويدلنا على صحة ما ذهب إليه أبو شامة ما يأتي:

- ١- إن الأحرف السبعة أعم من القراءات السبعة المنسوبة إلى الأئمة السبعة القراء، وأن القراءات أخص من تلك الأحرف السبعة، ذلك أن الوجوه التي أنزل الله عليها قرآنه تشمل كل وجه قرأ به النبي ﷺ وذلك يشمل القراءات السبع وغيرها.
- ٢- عندما تحدث الرسول ﷺ بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، لم يكن هؤلاء القراء قد خلقوا بعد. فهل يعقل أن الرسول ﷺ لم يفرض القراءة على الأحرف السبعة إلا بعد أن يولد هؤلاء القراء ويختاروا القراءة بها، والبون بين العهدين بضعة قرون؟ كما يستلزم القول بذلك: أن يظل حديث رسول الله ﷺ عارياً عن الفائدة إلى أن يولد هؤلاء القراء، وتتخذ القراءة عنهم!
- فليس المراد بالأحرف السبعة قراءات معنية تنسب إلى قراء معينين، بل هي تشير إلى الرخصة والتيسير في القراءة. أما القراءات السبع، فلم تعرف على الشكل المعروف إلا في رأس المائة الرابعة من الهجرة، وذلك حين اختار الإمام (أبو بكر أحمد بن موسى بن عباس) المشهور بابن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ هـ قراء سبعة من أئمة القراء، ووضع في قراءاتهم كتابه المشهور باسم (كتاب السبعة).

هل أحسن ابن مجاهد في جمعه القراءات السبع

يقول الدكتور صبحي الصالح:

(ويقع أكبر قسط من اللوم في هذا الإيهام على عاتق الإمام الكبير أبي بكر أحمد بن موسى بن العباس المشهور (بابن مجاهد) الذي قام على رأس الثلاث مئة للهجرة في بغداد، بجمع سبع قراءات لسبعة من أئمة الحرمين، والعراقين، والشام اشتهروا بالثقة والأمانة والضبط وملازمة القراءة. وجاء جمعه محض مصادفة واتفاق، إذ كان في أئمة القراء من هو أجل منهم قدراً، وكان عددهم لا يستهان به. فإذا أبو العباس بن عمار يلوم ابن مجاهد، ويقسو عليه في تعبيره فيقول: (لقد فعل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كل من قل نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر، وليته إذ اقتصر نقص عن السبعة أو زاد، ليزيل الشبهة)^(٢).

(١) الإتيان ٢٤٧/١

(٢) مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ص ٢٤٧-٢٤٨

لهجة قريش والقراءات

قيل أن يكرم الله الرسول ﷺ بالرسالة، كانت لهجة قريش قد بسطت سيادتها على اللهجات العربية الأخرى، بعد أن احتكت بها فأخذت منها ما كانت بحاجة إلى أخذه، فصارت لهجة قريش هي اللهجة النموذجية التي اشتملت على كثير من محاسن اللهجات الأخرى. وكانت هذه اللهجة مألوفة معروفة لدى القبائل العربية، لأن تلك القبائل كانت تأتي كل عام إلى مكة لأداء الحج، فتحتك بقبيلة قريش فصارت (لهجة قريش) أفصح لهجات العرب، وأغناها وأعذبها وأرقها^(١). وهكذا نزل أكثر القرآن بهذه اللهجة ليكون معجزاً للعرب كلها.

لم تعددت القراءات؟

قد يقول قائل: إذا كانت قريش مألوفة للقبائل العربية كافة، فلم تعددت القراءات؟ والجواب: أن فهم اللغة شيء، والقدرة على النطق بها شيء آخر. فإذا كانت بعض القبائل العربية تفهم لغة قريش فهما صحيحاً كاملاً كما ينبغي، فقد يصعب عليها في بعض الأحيان - أن تنطق بها، وكيف تستطيع ذلك، وقد ورثت النطق بلهجة قبيلتها على شكل مخصوص جيلاً بعد جيل، حتى صارت هذه اللهجة أو تلك جزءاً من كيان بعض القبائل العربية.

كيف نشأ علم القراءات؟

تؤخذ قراءة القرآن عن طريق التلقي ثقة عن ثقة إلى النبي ﷺ. فلم يعتمد في ترتيل القرآن على ما في المصاحف، ذلك أن المصاحف في العصر الإسلامي الأول لم تكن منقوطة ولا مشكولة، وإن صورة الكلمة الواحدة قد تحتل أكثر من قراءة واحدة، لذلك كان القرآن الكريم يؤخذ عن طريق التلقي والرواية. وقد فهم المسلمون من التيسير في القراءة أن القراءة تباح لهم حسب الوسع. فالصاحبي لم يقرأ قراءة مخالفة للقراءة الأساسية إلا لأسباب خاصة اقتضت ذلك التيسير. ويأتي الرواة، ويروون قراءته كما سمعوها منه، من غير أن يبحثوا في الأسباب التي دعت إلى القراءة بها.

(١) لزيادة الاطلاع ينظر: الصحابي في اللغة لآحمد بن فارس ص ٥٢ طبعة بيروت سنة ١٩٦٣، وكتاب المزهري في علوم اللغة للسيوطي ٢٢١/١ بتحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم وزميله، طبعة القاهرة ١٩٥٨.

أعداد القراءات

المشتهر من القراءات المتواترة سبع، وهناك القراءات العشر، والقراءات الأربع عشر. والقراءات السبع التي تنسب إلى الأئمة السبعة المعروفين وهم: نافع، وعاصم، وحمزة، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وعلي الكسائي. وأما القراءات العشر فيضاف إلى هؤلاء الأئمة: أبو جعفر، ويعقوب، وخلف. وأما القراءات الأربع عشرة فتكون بزيادة قراءات أربع على قراءات هؤلاء العشر وهم: قراءة الحسن البصري، وابن محيصن، ويحيى اليزيدي والأعمش. وكما أن القراءات السبع متواترة، فإن القراءات العشر متواترة أيضاً على ما ذهب إليه بعض المحققين من الأصوليين والقراء.

تدوين القراءات السبع

ولكن هل القراءات السبع هي أول القراءات تدويناً؟ والجواب عن ذلك: أنها لم تكن أول القراءات تدويناً، فقد سبقتها في التدوين قراءات وقراءات، وكان من أئمة القراء من هو أعظم شأنًا وأجل قدراً من القراء السبعة. ومن هؤلاء الذين نقلت عنهم قراءات ودوّنت: (أبو عبيد القاسم بن سلام). و(أبو حاتم السجستاني) و(أبو جعفر الطبري) و(إسماعيل القاضي). وقراءة هؤلاء كانت أضعاف قراءة السبعة. وقد اعترف علماء القراءات أن قراءات كثيرة كانت تقرأ في العصور الإسلامية الأولى ثم أهمل شأنها، وهي غير القراءات التي رويت لأن في كتب القراءات فلم يدون علماء القراءات إلا المشهور الشائع.

شروط القراءة الصحيحة

- هذه ضوابط وضعها العلماء للقراءة الصحيحة:
- ١- التواتر: وهو أن ينقل القراءة جمع عن جمع يحيل العقل عادة تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهاه. وهذا شرط أساسي لصحة القراءة.
 - ٢- أن تكون موفقة للغة العرب: فلا تصح القراءة التي تختلف مع تلك القواعد.
 - ٣- أن تكون القراءة مروية عن واحد من الصحابة أو أكثر، وأن تكون صحيحة الإسناد، فلا تثبت عن طريق الرأي والاجتهاد.
 - ٤- أن تكون موافقة لخط المصحف الذي تمت كتابته في زمن عثمان رضي الله عنه.
- هذه هي الشروط المعتمدة في صحة القراءة، فإذا اختل شرط منها، صارت القراءة شاذة أو غير مقبولة، فلا تجوز القراءة بها.

القرء السبعة

- ١- عبد الله بن كثير المكي المتوفى بمكة عام ١٢٠هـ.
- ٢- نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المتوفى بالمدينة عام ١٦٩هـ.
- ٣- عبد الله بن عامر الدمشقي المتوفى بدمشق عام ١١٨هـ.
- ٤- أبو عمرو بن العلاء البصري المتوفى بالكوفة عام ١٥٤هـ.
- ٥- عاصم بن أبي النجود الكوفي المتوفى بالكوفة سنة ١٢٧هـ.
- ٦- حمزة بن حبيب بن عمارة التيمي الكوفي المتوفى بخلوان عام ١٥٦هـ.
- ٧- الكسائي علي بن حمزة الأسدي المتوفى عام ١٨٩هـ. وقد الحق بالقرء السبعة في زمن المأمون العباسي الحاقاً، وإنما كان السابع يعقوب الحضرمي كما قيل.

بقية العشرة

- ٨- أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي المتوفى سنة ١٣٠هـ.
- ٩- يعقوب بن إسحق الحضرمي المتوفى سنة ٢٠٥هـ.
- ١٠- خلف بن هشام البزار المتوفى سنة ٢٢٩هـ.

بقية الأربع عشرة

- ١١- ابن محيصة محمد بن عبد الرحمن السهمي المتوفى سنة ١٢٣هـ.
- ١٢- يحيى بن المبارك اليزيدي المتوفى سنة ٢٠٢هـ.
- ١٣- الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠هـ.
- ١٤- سليمان بن مهران الأعمش المتوفى سنة ١٤٨هـ.

قراءة حفص عن عاصم

القراءة المتواترة التي فاقت القراءات كلها: هي قراءة (حفص عن عاصم الكوفي). وهذه القراءة هي التي ضبطت عليها المصاحف المطبوعة في بلادنا وفي كثير من بلدان المسلمين. وقد انتهت إلى عاصم رئاسة الإقراء بالكوفة بعد (أبي عبد الرحمن السلمي) الذي أرسله عثمان بن عفان مع مصحفه إلى الكوفة. وقد أخذ عاصم القراءة عن جماعة من علماء التابعين منهم: (زر بن حبيش) و(أبو عبد الرحمن السلمي) و(أبو عمرو سعد بن أياس الشيباني).

أما زر بن حبيش، فقد قرأ على عبد الله بن مسعود، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وأما عبد الرحمن السلمي، فقد أخذ القراءة عن عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب. وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب رضي الله عنهم.

وأما أبو عمرو سعد الشيباني، فقد قرأ على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. فأنت ترى أن قراءة عاصم مرجعها خمسة من كبار علماء الصحابة بالقراءة. إن هذا الأمر هو الذي جعل (مكي بن أبي طالب) يقول في قراءة عاصم: (فقراءته مختارة عند من رأيت من الشيوخ، مقدمة على غيرها، لفصاحة عاصم، ولصحة سندها، وثقة ناقلها) ^(١)

وقراءة (حفص عن عاصم) يُقرأ بها الآن في الشرق الإسلامي: من العراق والشام، وغالب البلاد المصرية، وجزيرة العرب، والهند، وباكستان، وتركيا، وأفغان.

(١) محاضرات في علوم القرآن للأستاذ غانم قدوري حمد ص ١٨٥

المستشرقون والقراءات القرآنية

إذا كان للمستشرقين جهود طيبة في إبراز شيء من تراثنا الإسلامي، فإن جهودهم التي عملت على هدم هذا التراث والنيل منه أكثر وأكثر. ويدلنا على هذا كتاباتهم الكثيرة التي افترضوا فيها على ديننا وتراثنا، ومن ذلك: زعمهم أن الاختلاف في القراءات القرآنية كان على هوى من القراء، لا عن رؤية وتوثيق. يقول المستشرق المجري (جولد تسيهر) ١٨٥٠-١٩٢١:

(والقسم الأكبر من هذه القراءات يرجع السبب في ظهوره إلى خاصية الخط العربي: فإن من خصائصه: أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة قد يقرأ بأشكال مختلفة تبعاً للنقط فوق الحروف أو تحتها، كما أن عدم وجود الحركات النحوية، وفقدان الشكل في الخط العربي يمكن أن يجعل للكلمة حالات مختلفة من ناحية موقعها من الإعراب، فهذه التكميلات للرسم الكتابي، ثم هذه الاختلافات في الحركات والشكل، كل ذلك كان السبب الأول لظهور حركة القراءات، فيما أهمل نقطه أو شكله من القرآن) (١)

وفي مثل هذه المعاني يقول المستشرق الألماني كارل بروكلمان ١٨٦٨-١٩٥٦: (حقاً فتحت الكتابة التي لم تكن قد وصلت بعد إلى درجة الكمال مجالاً لبعض الاختلاف في القراءة لا سيما إذا كانت غير كاملة النقط، ولا مشتملة على رسوم الحركات، فأشغل القراء، على هذا الأساس بتصحيح القراءات واختلافاتها) (٢)

وهناك كثير من المستشرقين نهجوا هذا النهج في تفسيرهم للقراءات القرآنية، من هؤلاء المستشرق الفرنسي بلا شيهير ١٩٠٠-١٩٧٣ (٣) والمستشرق الأمريكي آرثر جفري (٤)

وهذا اللون من كتابة المستشرقين ليس بغريب، فإن أكثرهم من موظفي المؤسسات الصهيونية، أو التنصيرية، أو الدوائر الاستعمارية، أو من رجال الكهنوت في أوروبا، وقد قام كثير منهم -إن لم نقل كلهم- بدور خطير في مجال التنصير، بل إن المنصرين استفادوا من كتاباتهم في مجال عملهم التخريبي.

على أننا حتى لو أحسنا الظن بهؤلاء الذين كتبوا في القراءات القرآنية نقول: إن الذي جعلهم يصلون إلى هذه النتيجة (الواغلة بالخطأ إلى الأدفان): هو جهلهم بطريقة تلقي المسلمين للقرآن الكريم، ذلك أن الصحابة تلقوا القرآن مشافهة عن النبي ﷺ فكانوا يسمعون القرآن منه كلمة كلمة وحرفاً حرفاً وحركة حركة، وكان من الصحابة عدد ليس بالقليل ممن حفظ القرآن كله عن ظهر قلب،

(١) مذاهب التفسير الإسلامي تأليف اجنيس جولد تسيهر ص ٤. نقله إلى العربية علي حسن عبد القادر. الطبعة الأولى ١٣٦٣-١٩٤٤. مطبعة العلوم

(٢) تاريخ الأدب العربي تأليف كارل بروكلمان ١٤٠/١ ترجمه عبد الحلیم النجار. الطبعة الثانية. دار المعارف بمصر.

(٣) القرآن تأليف بلا شير. ترجمة رضا سعادة. دار الكتاب اللبناني. الطبعة الأولى ١٩٧٤ بيروت.

(٤) المصاحف تأليف ابي بكر عبد الله بن ابي داود سليمان بن الاشعث السجستاني. حققه الدكتور آرثر جفري الطبعة الأولى. المطبعة الرحمانية. القاهرة ١٣٥٥هـ.

وجاء التابعون فتلقوا القرآن عن الصحابة مشافهة أيضاً ثقة عن ثقة. وهكذا اعتمد المسلمون على الحفظ في الصدور، لا على القراءة في السطور. فلم تكن العبرة بالخط. ولو كان الأمر كذلك، لاعتمدت قراءات يسمح الخط بها. ومن هذا يتضح أن القراءات كانت موجودة قبل ظهور النقط والحركات، ذلك أن بعضاً من القبائل العربية عجزت أن تُلَفِّظ بعض الحروف والكلمات بلهجة قريش، فجعل الله لهم متنسعا في هذا الأمر، فجاءت الرخصة بالقراءات. فلم يدون القراء قراءاتهم حسب هواهم كما يزعم هؤلاء، بل كانوا متبعين لما نقل إليهم بروايات صحيحة.

إعجاز القرآن

المعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة يظهرها الله على يد النبي على وفق دعواه؛ تصديقاً له. فلا تتحقق المعجزة إلا إذا توافرت الأمور الآتية فيها:

- ١- أن تكون جارية على غير ما اعتاده الناس وأفوه من السنن الكونية والظواهر الطبيعية. فلم يالف الناس أن تتحول العصا إلى حية، ولا يعجز البلغاء عن الإتيان بمثل كلام بلوغ.
- ٢- أن تكون مقرونة بتحدي المكذبين أن يأتوا بمثلها.
- ٣- أن تكون سالمة عن المعارضة، فلا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها قولاً أو عملاً، فلو أتى بمثلها لا تكون معجزة.
- ٤- أن تكون المعجزة من الله وحده.

- ٥- أن تظهر على يد نبي.
- ٦- أن تكون على وفق ما يدعيه النبي، لا مخالفة لدعوته.

لقد كانت المعجزات التي أجراها الله على أيدي أنبيائه ورسله من جنس ما برعت به أقوامهم، لتكون الحجة ملزمة لهم. فحين أرسل الله موسى -عليه السلام- إلى قومه، كانت معجزته من جنس ما برع به القوم آنذاك، إذ كان السحر منتشراً: فكانت عصاه تتفجر منها المعجزات: الفاها أمام السحرة فإذا هي حية تسعى، وصارت تلقف ما يافكه السحرة، وضرب بها الصخرة؛ فانفجرت منها اثنتا عشرة عينا، وكانت معجزة سيدنا عيسى من جنس ما برع به القوم آنذاك، فأبرأ الأكمه والأبرص، وأحيا الموتى بإذن الله.

وحين أرسل الله محمداً ﷺ كانت الفصاحة والبلاغة العربية قد وصلت أوجها، فجعل الله معجزة محمد ﷺ القرآن الكريم، وتحدي العرب أن يأتوا بمثله فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فعجزوا -أيضاً- ثم قال رب العالمين:

﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ سورة الإسراء/٨٨

وظل هذا التحدي قائماً، وسيظل كذلك -إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها!

لقد كان المشركون حريصين على قبول هذا التحدي لو استطاعوا، لكنهم علموا أن ذلك لم يكن في قدرتهم؛ لذلك لم ينقل عن واحد منهم أنه حدث نفسه أن يأتي بشئ يشبه ما في القرآن، لعلمهم أن ذلك يكشف جهلهم أمام أساطين البلاغة والفصاحة والبيان؛ فعمدوا إلى المكابرة والمعاندة والاستهزاء.

ولقد اختلف العلماء في سبب الإعجاز على مذاهب، ومن أهمها:

١- إخباره بالغيب: ذكر القرآن الكريم كثيراً من الحوادث التي ستقع لمجتمعات بشرية. وقد تحقق ما أخبر به من ذلك إخباره بهزيمة الروم - وهم أهل كتاب في فلسطين - على أيدي الفرس - وهم عباد أوثان - ثم انتصار الروم عليهم بعد ذلك في بضعة سنين. وقد فرح المشركون بذلك، وتوعدوا المسلمين أن يصيبهم ما أصاب إخوانهم من أهل الكتاب، وساء المسلمين ذلك. وقد سجل القرآن هذه الحادثة فقال:

﴿الْمَغْلَبَتِ الرُّومُ﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ
سَيَغْلِبُونَ ﴿٢﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۖ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ
يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ﴿٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا تُخْلَفُ ۚ وَكَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ سورة الروم، الآيات ١-٦.

وهذه الآيات الكريمة جاءت بصيغة لا تقبل التأويل ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلَفُ اللَّهُ وَعَدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وقد تصور بعض من الناس أن الرسول ﷺ وضع نفسه في امتحان عسير؛ إذ حدد الموعد بأقل من عشر سنين؛ إذ البضع في اللغة ما بين الثلاث إلى التسع. وقد تحقق الأمر كما أخبر به القرآن الكريم وتدل هذه الآيات دلالة واضحة: على أن هذا القرآن هو من عند الله، وليس من عند محمد ﷺ.

ومن إخبار القرآن بالغيب: دخول المسلمين المسجد الحرام وقد تحقق، وعصمة الله رسوله من القتل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ سورة المائدة/ ٦٧.

وقد تحقق على كثرة من حاولوا قتله صلوات الله وسلامه عليه.

٢- الإخبار عن الماضي بالأنباء الصادقة: كان رسول الله ﷺ أمياً لم يطلع على أقاصيص الأولين وكتبهم وسيرهم: فتحدث القرآن عن آدم وكيف خلق، وعن نوح وعناد قومه، وما كان بينه وبين ابنه الكافر، وعن الطوفان الذي حل بالناس. وتحدث عن إبراهيم ودعوته قومه إلى عبادة الله وحده وإلى تحطيم الأصنام، ثم إلقاءه في النار. وتحدث عن سليمان وعلمه بمنطق الطير، وعن يوسف وقصته مع أبيه وقومه وكيد إخوته له، وقصة سيدنا موسى التي وردت في القرآن في ثلاثين موضعاً، وقصة سيدنا عيسى من مولده إلى أن رفعه الله إليه ... فعلم من هذا أن ما ورد من هذه الأخبار كان عن طريق الوحي: وهو جانب من جوانب إعجاز القرآن قال تعالى:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا

قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ سورة هود ٤٩

٣- النظم والأسلوب والبلاغة: وصل القرآن الكريم قمة البلاغة في أسلوبه، وبديع نظمه، وتناسق كلماته، ووجوه إيجازه: فالفاظه فصيحة، وجمله وتراكيبه قد أحكمت إحكاماً لا يستطيعه أحد من العالمين، فوق ما نجده من حسن انتقاء الألفاظ، ودقة الاختيار، وفواصل القرآن، وارتباط الفاصلة بالنص القرآني... والقرآن الحكيم يعرض الحادثة الواحدة بطرق متنوعة، وفي كل طريقة معنى غير المعنى في الحادثة الأخرى. فلا يستطيع المتأمل في القرآن الكريم أن يجد نصين يتكرران ما لم يزد أحدهما معنى أكثر من المعنى الذي تضمنه النص الآخر، على كثرة النصوص المتشابهة التي يسوقها القرآن الحكيم: ذلك أن السياق القرآني يعرضها كل مرة عرضاً جديداً، مشيراً إلى تفصيلات لا نجدها في العرض الآخر. وهذا ما نجده في القرآن الكريم بكثرة كاثرة: كالأيات التي تتحدث في يوم القيامة، وصور النعيم والعذاب في الدار الآخرة، والمشاهد الكونية الكثيرة، وقصص الأنبياء... وقد يكون التنويع في الآيات الكريمة بكلمة واحدة، أو بزيادة حرف واحد. وكمثال على هذا ما جاء في قول الله تعالى:

﴿... يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ

نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ سورة البقرة/ ٤٩
وقوله:

﴿... يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ

نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ سورة إبراهيم/ ٦

وهاتان الآيتان تتحدثان في موضوع واحد يتعلق بما أنعمه الله على بني إسرائيل. أما الآية الأولى، فتتحدث بما منه الله على بني إسرائيل؛ إذ نجاهم من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب: يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، وأما الآية الثانية، فتتحدث في الموضوع نفسه، لكنها أضافت معنى آخر بزيادة الواو في قوله ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾، فما المعنى الذي أضافته؟

أما آية سورة البقرة، فقد حددت حقيقة العذاب: وهو تذبيح الأبناء واستحياء النساء، وأما آية سورة إبراهيم، فأشارت إلى أن العذاب كان أنواعاً كثيرة لم يقتصر على تذبيح الأبناء واستحياء النساء، بل هو فوق ذلك- أنواع أخرى من العذاب. وهكذا اختلف

معنى الآيتين حين زيد (حرف الواو) في سورة إبراهيم؛ فلا تكون إحداها مكررة.

وهكذا يعرض القرآن الحكيم الموضوع كل مرة بشكل يُشبه الشكل الذي سبقه، لكنه يضيف معنىً آخر. وهذا بلا ريب - لون من ألوان إعجاز القرآن؛ فسبحان من هذا كلامه!

وننظر في القصص القرآني، فنجد صور عرضها متعددة، قد اختلفت في طرق سردها؛ إذ القرآن يسوق القصة كل مرة في جو يختلف عن جو السياق الآخر، فتبدو كأنها قصة جديدة، مع أن الأشخاص هم الأشخاص، والحوادث هي الحوادث نفسها. ولكن الذي تغير هو سياق الآية الذي يدخل إلى النفس البشرية دخولاً لطيفاً؛ فيقع التأثير بها.

٤- العلوم الكونية: أشار القرآن الكريم إلى حقائق علمية سيكتشفها الناس فيما بعد فقال تعالى:

﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ

أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ سورة فصلت/٥٣

وحرف السين في قوله تعالى (سنريهم ...) يفيد الاستقبال أي أن الله ﷻ سيري الناس دلائل وأصحات في هذا الكون وفي النفس الإنسانية، على أن هذا القرآن منزل من عند الله، وأن كل ما جاء به حق لا ريب فيه. وهكذا الأمر في قوله:

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ سورة النمل/٩٣

وقوله:

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ سورة ص/٨٨

ويشاء الله أن يجعل غير المسلمين هم الذين يكتشفون كثيراً من الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم، في القرنين التاسع عشر والعشرين، بعد أن تقدمت المخترعات، وضرب التقدم الحضاري بسهم وافر، واكتشف الإنسان أجهزة حديثة أوصلته إلى اكتشاف تلك الحقائق العلمية. فمن الذي أعلم النبي محمداً ﷺ بهذه الآيات التي أشارت إلى حقائق علمية ما كان يعرفها أحد حين نزول القرآن الكريم لو لم يكن القرآن تنزيلاً من رب العالمين؟! إن هذا الأمر هو الذي جعل بعضاً من علمائنا يقول: إن ما أشار إليه القرآن من حقائق علمية لون من ألوان إعجاز القرآن وحجتهم: أن القرآن لم يكن خاصاً بالعرب حتى يدركوا بلاغته وفصاحته وبيانه، وإنما هو كتاب أنزله الله إلى الناس كافة: عربهم وعجمهم، فيستطيع كل واحد منهم إدراك شيء من إعجاز القرآن في النواحي العلمية. ولقد وضع هؤلاء العلماء شروطاً في التفسير العلمي فقالوا: إن الآيات العلمية في القرآن الكريم لا تفسر إلا بالحقائق العلمية فلا تفسر بالنظريات، وإن التفسير العلمي يجب أن

يكون وفق أساليب اللغة العربية، كما يجب أن لا يعدل المفسر عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا تعذر حمل الآية على الحقيقة ... وقد أشار القرآن إلى حقائق علمية كثيرة، منها: ما أخبر به من أن الإنسان يضيق صدره إذا ارتفع في أعالي الجو قال تعالى:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ سورة الانعام/ ١٢٥

لقد كان الناس يظنون إلى عهد ليس بالبعيد: أن الإنسان إذا ارتفع في أعالي الجو فإنه يتنفس الهواء العليل بسهولة. فلما صنع الإنسان الطائرة الحديثة وطار بها في أعالي الجو، وجد معضلة تقف أمامه: وهي صعوبة التنفس، فيضيق صدره لقلّة الأكسجين. وكلما ازداد صعوداً ازدادت صعوبة التنفس أكثر. فمن الذي أعلم محمداً ﷺ بهذه الحقيقة العلمية لو لم يكن القرآن منزلاً من عند الله؟! الله!!

ومن أمثلة الإعجاز القرآني قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتْنَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة يونس/ ٢٤

ونقف هنا وقفة قصيرة أمام قوله تعالى: ﴿أَتْنَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ

نَهَارًا﴾. فلو قال القرآن: أتأها أمرنا ليلاً لحق للناس أن يقولوا في هذا العصر: إن هذا القرآن من عند محمد ﷺ. وهكذا الأمر لو قال القرآن: أتأها أمرنا نهاراً؛ لأن قيام الساعة سيكون في لحظة واحدة، ونحن نعلم أن الأرض التي تكون عندنا نهاراً تكون عند غيرنا ليلاً. لذلك كان القرآن الحكيم دقيقاً كل الدقة حين قال: ﴿أَتْنَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ

نَهَارًا﴾: فتكون ليلاً عند القوم الذين عندهم ليل، ونهاراً عند الذين يكون عندهم نهار؛ لذلك قال الحكيم الخبير في نهاية الآية: ﴿كَذَلِكَ

نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ومن الأمثلة العلمية على إعجاز القرآن قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ سورة النبأ/ ٦-٧

الاستفهام في الآية استفهام تقريرى، والآية تحمل حقيقة علمية لم تعرف إلا قبل فترة وجيزة من الزمن بالوسائل العلمية الحديثة التي لم يعرفها أحد قبل النصف الأخير من القرن العشرين. فقد تمكن العلماء من اختراع أجهزة تصوّر باطن الأرض بتقنيات دقيقة جداً؛ فتبين من تلك الصور أن الجبال مغروسة كالأوتاد في باطن الأرض، وأن ذلك الجزء المغروس مدبب كالوتد ليكون الجبل ثابتاً مكانه. ولولا ذلك لما كان للجبل من ثبات. وهذه الحقيقة العلمية لم يعرفها العرب ولا غير العرب حين نزول القرآن، ولم تكتشف إلا بعد منتصف القرن العشرين. وهناك حقيقة علمية أخرى تتعلق بالجبال، أشار إليها القرآن الكريم وهي قوله تعالى:

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ سورة النحل/ ١٦.

ويبدو من هذه الآية أن الجبال بجذور أوتادها المغروسة في باطن الأرض تقوم بحفظ توازن الأرض لئلا تميد بالناس. ولولا ذلك، لوقعت الزلازل الكثيرة هنا وهناك، ولما استطاع الإنسان أن يعيش على الأرض العيش الاعتيادي. ومما يدل على إعجاز القرآن قول الله تعالى:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ سورة الرحمن/ ١٩-٢١

نزلت هذه الآية على النبي الأمي محمد ﷺ، ولم يكن أحد من العرب ولا غير العرب يعرف عن هذه الظاهرة أي شيء كان؛ ذلك أن مياه الأنهار العذبة تصب في البحار والمحيطات المالحة. لكن عذوبة تلك المياه تظل كما هي لا تمتزج بملوحة البحار والمحيطات مسافة طويلة، على الرغم من كثرة المياه المالحة وشدة ملوحتها. إنهما يتجاوران ويلتقيان، لكنهما لا يمتزجان، ويظل كل منهما محتفظاً بخصائصه ومكوناته الكيماوية بسبب ذلك (البرزخ) الذي هو الحاجز الذي يفصل بينهما، فلا يطغى أحدهما على الآخر بالتمازج والاختلاط. وقد اكتشفت بحيرات تحتوي على الماء العذب في باطن المحيطات مع أن الملوحة تحيط بالمياه العذبة من كل جانب.

والأعجب من ذلك أن المياه المالحة نفسها لا يختلط بعضها ببعض الآخر إذا كانت نسبة الملوحة مختلفة بين المائين المالحين، فيظل أحد المائين طافياً فوق الماء الآخر لا يمتزج به. وهذه الظاهرة نراها واضحة كل الوضوح في مياه البحر الأحمر التي لا تمتزج بمياه المحيط الهندي عند (باب المندب) بسبب ذلك (البرزخ) الذي يفصل بين البحر والمحيط.

فمن أين لمحمد ﷺ هذا العلم لو لم يكن القرآن تنزيلاً من رب العالمين؟!!

وهكذا الأمر في الآيات القرآنية التي تتحدث عن الإحساس بالألم وأنه يتركز في الجلد، وتسوية البنان، وحركة الأرض والجبال، وأطوار خلق الإنسان ... بل الآيات العلمية في القرآن الكريم وصلت إلى المئات وجاءت علوم القرن العشرين مؤيدة لكل ما ورد في القرآن.

وإذا كان القرآن الحكيم قد أشار إلى حقائق علمية كثيرة، فإن غيره من الكتب المنزلة ليس فيها ما يشبه تلك الإشارات العلمية، ذلك أن الرسائل التي سبقت رسالة الإسلام في الزمن جاءت لأقوام معينين ولم تجئ عامة إلى كل جيل من الأجيال. وكل رسالة من تلك الرسائل ينتهي العمل بها برسالة رسول جديد. أما الشريعة الإسلامية، فقد أرادها الله أن تكون خاتمة الشرائع، وللنبي - صلى الله عليه وسلم - أن تقوم الساعة؛ لذلك جعل الله في هذا الدين كل ما يحتاجه الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فهو ليس لجيل دون جيل، بل هو للأجيال كلها، يهديهم إلى طريق الخير والرشاد. وأخيراً: فإن إعجاز القرآن لا ينحصر في ناحية واحدة أو ناحيتين من هذا أو ذاك، بل هو معجز بكل ما فيه: بفصاحته، وبلاغته، وبيانه، وإخباره بالغيب، وإخباره عن الماضي بالأنباء الصادقة، وبأشتماله على العلوم الكونية، وبإعجازه التشريعي ...

المحكم والمتشابه

الإحكام في اللغة: مصدر معناه الإتقان تقول: أحكمت الشيء فاستحكم أي أتقنته فصار متقناً

أما المتشابه: فهو من الفعل اشتبه أو تشابه التي تدل على المشاركة والمماثلة والمشاكلية المؤدية إلى معنى الالتباس تقول: اشتبهت القبلية على المصلي: أي التيسر ولم تبد واضحة
وحين نزل القرآن الحكيم، نجد أن الله ﷻ وصف كتابه بالأوصاف الآتية:
١- القرآن محكم: ودليل هذا قوله تعالى:

﴿الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

سورة هود/١.

٢- القرآن متشابه: ودليله قوله تعالى:

﴿اللَّهُ نَزَّلُ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ

الَّذِينَ سَخَشُونَهُمْ﴾ سورة الزمر/٢٣.

٣- القرآن فيه المحكم والمتشابه: ودليله قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ

وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ...﴾ سورة آل عمران/٧.

والقول الثالث هو الراجح.

تعيين المحكم والمتشابه

ولقد وقع الاختلاف في المراد بالمحكم والمتشابه على أقوال كثيرة، من أهمها:

١- المحكم ما عرف المراد منه بظهوره واضحاً، أو عن طريق التأويل إذا كان اللفظ يحتمل أكثر من معنى، والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه ولم يقف أحد من العباد عليه.

٢- المحكم: ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه: ما احتمل أوجهاً

٣- المحكم: ما استقل بنفسه ولم يحتاج إلى بيان، والمتشابه: ما لا يستقل بنفسه ويحتاج إلى بيان في رده إلى غيره.

وهكذا يبدو أن الآيات المحكمات هي: الآيات الواضحات البينات التي لا التباس في المراد بها، وليس فيها شيء من الخفاء في معانيها. أما الآيات المتشابهات: فقد كثرت أقوال المفسرين في المراد بها فقالوا:

١- هي الآيات التي يوهم ظاهرها معنى لا يتفق مع دلالة المحكم في تنزيه الله. وقد مثلوا لذلك بالآيات التي تضيف إلى الله صفات

خبرية: كالاستواء في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ سورة طه/٥.

والجسمية في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ سورة الفجر/٢٢.

والجوارح في قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ سورة الفتح/١٠.

٢- إنها الحروف المقطعة في أوائل السور كقوله تعالى: (الم) و(ق) و(الر)...

٣- الآيات التي قالوا فيها أنها من المجمل^(١) والمؤول^(٢) والمشكل^(٣) وقيل غير ذلك.

وحين نتأمل في هذه الأقوال نرى أن اقرب ما قيل فيها: هي الآيات التي يشبه بعضها بعضا في المعنى، ولكن يختلف كل منها في دلالاته الخفية، فيكون لتلك الآيات تأويلات متعددة لاختلاف الفهم فيها.

أنواع المحكم

ليس المحكم في درجة واحدة، بل هو في درجات؛ لذلك تفاوت الناس في فهمه ومعرفة مدلولاته. ننظر في القرآن فنرى، فيه آيات يفهمها كل من عرف اللغة العربية، وفيه آيات أخرى لا يفهمها إلا من كان له حظ في العربية وبلاغتها. وإذا كان الناس يتفاوتون في معرفة كلام البشر، فإن تفاوتهم في معرفة كتاب الله من باب أولى. كيف لا والقرآن كتاب أعجز العرب أصحاب البلاغة والفصاحة والبيان!

أنواع المتشابه

وإذا كان المحكم في درجات، فإن الآيات المتشابهة في درجات -أيضاً- بعضها أشد من بعض. ويمثل لها بالحروف المقطعة في أوائل تسع وعشرين سورة من سور القرآن، ومعرفة ما تدل عليه الأسماء والصفات...

(١) المجمل: هو اللفظ الذي لا يفهم المراد منه إلا باستفسار من المجمل وبيان من جهته يعرف به المراد.

(٢) المؤول: هو احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر.

(٣) المشكل: هو اسم لما اشتبه المراد منه بدخوله في أشكاله على وجه لا يعرف المراد منه إلا بدليل يتميز من بين سائل الأشكال. ولزيادة الإيضاح في هذه المصطلحات أنظر: كتب أصول الفقه.

تقديم المحكم على المتشابه

ويقدم العلم بالمحكم على العلم بالمتشابه؛ ذلك لأن المحكم هو أصل العلم، يقول أبو عبد الله البكر أباذي: (ولأن المحكم أصل، والعلم بالأصل أسبق، ولأن المحكم يعلم مفصلاً، والمتشابه لا يعلم إلا مجملاً)^(١).

هل يمكن العلم بالمتشابه

للعلماء في ذلك رأيان:
الرأي الأول: أن العلم به ممكن.
الرأي الثاني: أن العلم به غير ممكن.
ومنشأ الخلاف في هذه القضية الواو في قوله تعالى: ﴿... وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون أمانا به...﴾ سورة آل عمران/٧.

فقد قيل في واو ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ هي واو عطف، فيكون المعنى: أنالراسخين في العلم يعلمون تأويله أيضاً، والوقف عند هذا على كلمة (العلم): (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم...) أما أصحاب الرأي الثاني فيقولون: إن الواو إنشائية، والجملة مستقلة عن سابقتها، فتكون الواو للاستئناف، ويكون ما بعدها جملة مكونة من مبتدأ وخبر. وعلى هذا يكون المعنى: أن الراسخين في العلم يكلون أمر ما اشتبه عليهم من آيات القرآن إلى الله ﷻ. والرأي الأول هو الصحيح، وهو ما رجحه كثير من العلماء، واختاره الإمام النووي فقال:
(... والأصح الأول، وأن الراسخين يعلمونه، لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته. وقد اتفق أصحابنا وغيرهم من المحققين على أنه يستحيل أن يتكلم الله تعالى بما لا يفيد)^(٢).

(١) الإتيان ٣٥/٣

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٢١٨/١٦.

فوائد المتشابه الذي يمكن علمه

- ١- حث العلماء على الجد والاجتهاد والنظر للوقوف على غوامض القرآن ودقائقه.
- ٢- لو كان القرآن الكريم كله محكما، لما ظهر التفاضل بين العلماء في الوقوف على دقائقه.
- ٣- التعب والنصب والمشقة من أجل الوصول إلى مراد الله تعالى في تفسير غوامض القرآن توجب مزيد الثواب.
- ٤- المتتبع لمراد الله في الآيات المتشابهة، يصير له بتتبعه رصيد علمي كثير؛ ذلك أنه يحتاج في فهم الآيات إلى معرفة علوم العربية من اللغة والبلاغة والنحو والوقوف على أساليب العرب...

فوائد المتشابه الذي لا يمكن علمه

- ١- ابتلاء العباد به؛ ليفوض المسلم أمر تلك الآيات لله، سواء فهمه أم لم يفهمه، إنه يردد عند قراءته لتلك الآيات قوله تعالى ﴿إِنَّمَا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.
- ٢- العرب هم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان، وقد نزل القرآن بلغتهم، ومع ما يملكونه من السليقة العربية التي كانت سجية لهم، فإن قسما منهم قد عجز عن إدراك معاني بعض الآيات؛ فدل ذلك على أن القرآن منزل من عند الله وحده.

موقف العلماء من متشابه الصفات

- ذهب العلماء في متشابه الصفات ثلاثة مذاهب رئيسية:
- ١- التوقف في معناها من غير ميل إلى التأويل، أو الوقوع في التشبيه، وهو مذهب السلف، فهؤلاء يجرون الآيات الخبرية على ظاهرها.
 - ٢- الوقوع بالتشبيه، إذ فسروا آيات الصفات تفسيرا حرفياً.
 - ٣- التأويل: أي تأويل بعض آيات القرآن تأويلاً يتفق ولسان العرب، على أن ينزه الله من الجسمية والجهة، مع ملاحظة قواعد التأويل لكيلا يفسر القرآن بالهوى.

الناسخ والمنسوخ

- يطلق النسخ في اللغة على المعاني الآتية:
- ١- الإزالة: أي رفع شيء وإحلال شيء آخر محله، فيقال: نسخت الشمس الظل: إذا أزالته وحلت محله.
 - ٢- نقل الشيء من موضع إلى موضع آخر، فيقال نسخ خالد الكتاب إذا نقله إلى كتاب آخر، وفي هذا المعنى ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. سورة الجاثية/٢٩ أي نقل الأعمال إلى الصحف.
 - ٣- الإبطال: ويراد به رفع الشيء من غير أن يقيم له بدلاً، فيقال، نسخت الريح آثار القوم أي أبطلتها.
- أما النسخ في الاصطلاح: فهو رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي آخر متأخر، ويسمى الدليل الراجع بـ (الناسخ) والحكم المرفوع بـ (المنسوخ)، ويسمى الرفع بـ (النسخ).
- وقد أشرط العلماء في النسخ ما يأتي:
- ١- أن يكون كل من الناسخ والمنسوخ شرعياً.
 - ٢- أن يكون المنسوخ متقدماً على الناسخ في زمن النزول.
 - ٣- أن يكون هناك تعارض حقيقي بين الدليلين.

ما يقع فيه النسخ

ولا يقع النسخ إلا في الأحكام وهي: الأوامر والنواهي، سواء كانت صريحة في الطلب، أو كانت بلفظ الخبر الذي بمعنى الأمر أو النهي، ولا يشمل النسخ شيئاً يتعلق بالعقيدة والتجئة والنار، ولا بالأخبار بما كان أو بما سيكون كآخبار الأنبياء...

أقسام النسخ

- ١- نسخ القرآن بالقرآن. وقد اتفق العلماء على جوازه ووقوعه من القائلين به. ويمثلون له بآية الاعتداد بالحول التي نسخت بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشر. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ...﴾ سورة البقرة/٢٤٠
- فقد أفادت الآية أن المرأة التي توفي عنها زوجها، لها حق السكن في بيت الزوجية حولاً كاملاً، كما أن لها النفقة خلال هذه المدة. لكن الآية نسخت بقوله تعالى:
- ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا...﴾ سورة البقرة/٢٣٤.

وهذه الآية تفيد أن الزوجة المتوفى عنها زوجها، يجب عليها البقاء في بيت الزوجية مدة أربعة أشهر وعشرة أيام، من غير أن تخرج من بيتها إلا عند الضرورة.

٢- نسخ القرآن بالسنة: السنة قسمان: سنة آحاد وسنة متواترة. أ- أما سنة الآحاد، فلا تنسخ القرآن كما ذهب إلى ذلك جمهور العلماء، إذ القرآن قطعي الثبوت، والسنة الأحادية مظنونة الثبوت، ولا يصح رفع المتيقن بالمظنون.

ب- وأما السنة المتواترة فإنها تنسخ القرآن. وقد ذهب إلى ذلك: مالك، وأبو حنيفة، وأحمد في رواية عنه، لأن الكل وحي الله. وخالفهم في ذلك الإمام الشافعي والإمام أحمد في الرواية الثانية، ودليلهما قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ...﴾ سورة البقرة/١٠٦.

والسنة ليست خبراً من القرآن ولا مثله. ٣- نسخ السنة بالقرآن. وقد أجازوه الجمهور. ويمثلون له بالتوجه إلى بيت المقدس الذي ثبت بالسنة، وقد نسخ بالقرآن في قوله تعالى:

﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾ سورة البقرة/١٤٤.

٤- نسخ السنة بالسنة. وهذا يشمل أربعة أنواع:

- أ- نسخ سنة متواترة بمتواترة.
- ب- نسخ سنة آحاد بأحاد.
- ج- نسخ سنة آحاد بمتواترة.
- د- نسخ القرآن بسنة الآحاد. فالجمهور على عدم جوازه.

حكم الآيات المنسوخة

الآيات المنسوخة حكمها كحكم الآيات غير المنسوخة: فهي مثبتة في المصاحف، متلوة بالألسنة. والفرق بين غير المنسوخة والمنسوخة: أن المنسوخة سقط حكمها ونصها ثابت يتلى مثل سائر الآيات. وقد وقع حوار بين عثمان بن عفان وعبد الله بن الزبير (رضي الله عنهم) فقد روي الإمام البخاري عن عبد الله بن الزبير أنه قال: (قلت لعثمان: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي، لا أغير شيئاً منه من مكانه^(١)).

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير (باب: والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن) وانظر فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٩٣/٨ و٢٠١ رقم كتبه وأبوابه محمد فؤاد عبد الباقي. وقام بإخراجه محب الدين الخطيب/المكتبة السلفية.

ومعنى (فلم تكتبها أو تدعها) أي: لم تكتبها وقد عرفت أنها منسوخة؟

حكمة النسخ

١- مراعاة أحوال الناس. وذلك بالتدرج بالأحكام. حتى تنهياً نفوسهم لقبول الحكم الشرعي. مثال ذلك قضية تحريم الخمر: فقد بعث عليه السلام في مجتمع تأصلت فيه الخمرة. فنزلت الآية التي تنص على أن ضررها أكثر من نفعها قال تعالى:

﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ سورة البقرة/٢١٩.

ثم منعت الآية الأخرى الصلاة في حالة السكر فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ سورة النساء/٤٣.

ثم جاءت المرحلة الأخيرة بالتحريم العام فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ سورة المائدة/٩٠.

٢- التشريع الإسلامي يتطور إلى ما هو الأفضل، حسب تطور أوضاع الناس.

٣- اختبار الناس ليتبين امتثالهم من عدمه.

٤- في النسخ خير للامة؛ لأنه إن كان إلى أشق فإن فيه زيادة الثواب، وإن كان إلى أخف ففيه يسر على الناس.

آراء العلماء في النسخ

تعددت آراء العلماء في قضية النسخ كما يأتي:

١- أنكر اليهود وقوعه، زاعمين أن القول به يستلزم البداء-أي الظهور بعد الخفاء- وزعمهم هذا باطل، لأن علم الله أزلي: فهو يغير ويبدل في الأحكام والعبادات على وفق مصلحة البشر.

٢- ذهب الشيعة إلى القول بالنسخ، بل توسعوا به كثيراً، مستدلين بقول الله تعالى:

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۖ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ سورة الرعد/٣٩

كما استدلوا بأقوال نسبوها إلى سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام.

٣- جمهور العلماء قالوا بجواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعاً، مستدلين بأدلة عقلية وعقلية، فمن أدلتهم النقلية قوله تعالى:

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا...﴾ سورة البقرة/١٠٦

وقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ^١ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ سورة النحل/١٠١.

وأما الدليل العقلي، فهو أن أفعال الله لا تعطل بالأغراض، فإنه -سبحانه- يأمر بالشئ في وقت ثم ينسخه في وقت آخر، لأنه يعلم ما يصلح للناس.

٤- وذهب (أبو مسلم الأصفهاني) ^(١) إلى جواز النسخ عقلاً وامتناع وقوعه شرعاً. وقيل: إنه يمنع في القرآن بخاصة، مستدلاً بقول الله تعالى:

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ^ط تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ سورة فصلت/٤٣.

أما الآيات التي قيل بنسخها، فيحملها على التخصيص.

(١) هو محمد بن بحر الأصفهاني، كاتب بليغ، ونحوي بارع، وعالم من علماء الكلام على مذهب المعتزلة، كتب تفسيراً للقرآن في أربعة عشر مجلداً سماه (جامع التأويل لمحكم التنزيل). ولد سنة ٢٥٤هـ، وتوفي في ٣٢٢هـ.

أسباب النزول

معرفة سبب نزول آيات القرآن فرع من فروع علم التفسير، ولها أهميتها في تفسير قسم من آيات القرآن، بل إن بعضاً من آيات القرآن لا يعرف تفسيرها من غير الوقوف على سبب نزولها، وفي معرفة سبب النزول تبيان لحكمة التشريع/ وفيه أيضاً تبيان لمجمل القرآن، وإيضاح الخفي منه.

والرسول ﷺ لم يملك اختيار الوقت الذي ينزل عليه الوحي بآيات القرآن، فإن ذلك مرتبط بمشيئة الله وحده: فكان القرآن ينزل على الرسول الكريم في الليل والنهار، والسفر والحضر، من غير أن يكون له أي اختيار كان في ذلك. وكان الرسول الكريم يسأل فيجيب من فوره، أو ينتظر نزول الوحي حاملاً الجواب، مثال قوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ۖ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾ سورة

الأنفال/١

وقوله:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ...﴾ سورة

البقرة/١٨٩.

وقد عبر العلماء عن الوقائع التي نزلت بسببها الآيات بـ (أسباب النزول). وهذا المصطلح هو من باب التسامح والتجوز، والا فهي مناسبات وليست بأسباب حقيقية. وعند التأمل في القرآن الحكيم، نرى أنه ينقسم من حيث ارتباط آياته بسبب أو بغير سبب إلى قسمين:

القسم الأول: ويشمل أكثر آيات القرآن الكريم، فقد نزلت ابتداءً من غير أن ترتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وذلك لإرشاد الناس إلى العقيدة الصحيحة، وتصف مشاهد القيامة، والجنة والنار، وتحدث في قصص الأمم مع أنبيائها.

القسم الثاني: نزل بأسباب ووقائع، وكثير من هذا القسم يتعلق بالتشريع والأحكام: فتتنزل الآيات بأسباب كأن يكون جواباً عن سؤال، أو تصحيحاً لأخطاء وقعت، ذلك أن الصحابة الكرام وهم يعيشون أحداث السيرة النبوية يقع فيهم حادث يلتبس عليهم فهمه. فيسألون رسول الله ﷺ عنه، فتتنزل الآيات في ذلك مبينة الحكم الفصل. مثال ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال:

(لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، خرج رسول الله ﷺ

حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: فأنى نذير لكم بين يدي

عذاب شديد. قال ابو لهب: تبا لك، ما جمعتنا الا لهذا؟ ثم قام فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(١).

وقد يسأل الرسول ﷺ عن شيء، فينزل عليه القرآن ببيان الحكم فيه، كالذي كان من خولة بنت ثعلبة التي ظاهر منها زوجها (أوس بن الصامت)، وذهبت خولة تشكو من ذلك، قالت عائشة: (تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، اني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفي علي بعضه، وهي تشتكي زوجها الى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله: أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الايات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾^(٢).

معرفة سبب النزول

يعتمد العلماء في معرفة سبب النزول على النقل الصحيح عن الصحابة.. أولئك الذين عايشوا نزول القرآن، وشاهدوا أحداثه. يقول الواحدي:

(ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب الا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الاسباب، وبحثوا عن علمها، وجدوا في الطلاب)^(٣).

ونشير هنا الى أن اخبار الصحابي عن سبب النزول إذا كان صريحا له حكم المرفوع ولقد كان أول من صنف في أسباب النزول هو علي بن عبد الله المدني المتوفى سنة ٢٣٤، وكان كتاب علي بن أحمد الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨ هو أشهر كتاب صنف في هذا العلم، واما أجمع كتاب، فهو كتاب السيوطي المتوفى سنة ٩١١ (لباب النقل في أسباب النزول).

(١) رواه البخاري - واللفظ له في كتاب تفسير القرآن (سورة تبت يدا ابي لهب

وتب) ٩٤/٦. ومسلم في كتاب الايمان (باب: وأنذر عشيرتك الاقربين) ١٩٤/١.

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الطلاق (باب: الظهار) رقم الحديث ٢٠٦٣، وابن ابي

حاتم، والحاكم وصححه.

(٣) اسباب نزول القرآن للواحدي ص ٥ بتحقيق السيد أحمد صقر. دار الكتاب

الجديد/ لجنة احياء التراث الإسلامي. الطبعة الاولى ١٣٨٩-١٩٦٩

أسباب النزول وفهم القرآن

وأسباب النزول تعين في فهم المراد من الآية، ومعرفة ما فيها من تشريع، يقول ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢هـ.
(بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن) (١).
ويقول ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ:
(معرفة سبب النزول تعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب) (٢).
فقول الله ﷻ:

﴿إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ سورة البقرة/ ١٨٥
قد يشكل فهمه على بعض من يقرؤه، ذلك أن السعي بين الصفا والمروة واجب من واجبات الحج، وعبرة (لا جناح) في الآية قد يفهم منها عدم الوجوب وهذا الإشكال وقع لعروة بن الزبير، وهو من هو دراية في لسان العرب، فسأل خالته السيدة عائشة أم المؤمنين، فأفهمته أن نفي الجناح لا يراد به نفي الفرضية، بل هو نفي لما وقر في أذهان الناس في فجر الإسلام الأول، ذلك أن السعي كان من عمل الجاهلية: فقد كان على الصفا صنم يسمى (أساف)، وعلى المروة صنم آخر يسمى (نائلة)، وكان المشركون في الجاهلية يقومون بالسعي بين الصفا والمروة، ويتمسحون بالصنمين. ولما فتحت مكة حطم الصنمان، وقد تخرج المسلمون من الطواف فنزلت الآية (٣).

فوائد معرفة أسباب النزول

- لمعرفة أسباب النزول فوائد كثيرة منها:
- ١- التعرف على حكمة الله فيما شرعه في قرآنه.
 - ٢- الاستعانة به في فهم الآية، ودفع الإشكال عنها كما مر بنا.
 - ٣- معرفة من نزلت الآية فيه على التعيين.

(١) الإتيان للسيوطي ٨٣/١.

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ١٣ الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ/ المكتبة السلفية/ القاهرة.

(٣) لزيادة الاطلاع بنظر: ما رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن (باب: قد نرى تقلب وجهك في السماء) ١٥٣/٥.

ترجمة القرآن

الترجمة: نقل المعنى من لغة الى لغة اخرى، يقال: ترجم كلامه اذا فسر به بلسان آخر. وفي الحديث الشريف.
(ما منكم من أحد الا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان) (١).
وسمي (عبد الله بن عباس) ترجمان القرآن، لانه كان المفسر المعبر عن معانيه.
لقد أنزل الله القرآن الحكيم باللسان العربي، ولكن هل تجوز ترجمته الى لغة اخرى؟
والجواب: ان الترجمة قسمان: ترجمة حرفية، وترجمة تفسيرية:
١- أما الترجمة الحرفية: فهي نقل الفاظ من لغة الى نظائرها من اللغات الاخرى، بحيث يكون النظم موافقا للنظم، والترتيب موافقا للترتيب: فتستبدل كل لفظة بما يقابلها من اللغة الاخرى.
٢- وأما الترجمة التفسيرية: فهي بيان معنى الكلام بلغة اخرى، من غير تقييد بترتيب كلمات الاصل أو مراعاة لنظمه (٢). واكثر ما تطلق الترجمة على الترجمة التفسيرية.
ان التعبير العربي فيه من دقائق اللغة ما لا يمكن ان يحل محله تعبير آخر بلغة اخرى. وننظر في القرآن الكريم، فإذا هو قد وصل الى القمة في الفصاحة والبلاغة، فلا يتيسر لاية لغة كانت من اللغات أن تحمل تلك المعاني التي يحملها القرآن بلفظه العربي.

حكم الترجمة الحرفية

لا تجوز ترجمة القرآن ترجمة حرفية، اذ ليس في اللغات مفردات تقابل بعضها بعضا في المعنى كله، بل حتى لو وجد ذلك اللفظ، فان طريقة ترتيب الكلام تختلف من لغة الى لغة اخرى. فلا تستطيع اية ترجمة كانت ان تنقل معانيه التي يتضمنها باللسان العربي.

نماذج من آيات القرآن لا يمكن ترجمتها

وهذه نماذج من آيات القرآن لا يمكن ترجمتها الى أية لغة كانت، قال الله تعالى: ﴿هَمَّازٌ مَّشَاءً بَنَمِيمٍ﴾ ﴿مِّنَ النَّارِ لُحْمٌ يُعْتَدِ الْأَكْمَامُ﴾ ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ سورة القلم ١١-١٣.

(١) رواه البخاري في كتاب الادب (باب طيب الكلام)، ومسلم في كتاب الزكاة (باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمره...).

(٢) مباحث في علوم القرآن للأستاذ مناع القطان ص ٣١٣. الطبعة الثالثة ١٣٩٦-١٩٦٧.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٥١﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٢﴾ فَرَّتْ
مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥٣﴾ سورة المدثر/ ٤٩-٥١.

﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ
وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ سورة البقرة ١٨٧.

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ ۖ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ
حَسِينًا ﴿١٤﴾ سورة الاسراء/ ١٣-١٤.

الى غير ذلك من آيات القرآن الكريم.
وكمثال تطبيقي على ذلك ننظر في قوله عزوجل: ﴿ولا تجعل
يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما
محسورا﴾ سورة الاسراء ٢٩.

(فإنك اذا اردت ترجمتها ترجمة حرفية، اتيت بكلام من لغة
الترجمة يدل على النهي عن ربط اليد في العنق، وعن مدها غاية
المد مع رعاية ترتيب الاصل ونظامه بان تأتي باداة النهي أولاً،
يليه الفعل المنهي عنه متصلاً بمفعوله، ومضمراً فيه فاعله، وهكذا
... ولكن هذا التعبير الجديد قد يخرج في اسلوب غير معروف ولا
مألوف في تفهيم المترجم لهم ما يرمي اليه الاصل من النهي عن
التقتير والتبذير بل قد يستتكر المترجم لهم هذا الوضع الذي صيغ
به هذا النهي ويقولون: ما باله ينهى عن ربط اليد بالعنق، وعن مدها
غاية المد؟ وقد يلصقون هذا العيب بالاصل ظلماً، وما العيب الا فيما
يزعمونه ترجمة للقران من هذا النوع) (١).
لذلك تحرم الترجمة الحرفية للقران الكريم: اذ القران معجز
بلفظه العربي الذي يحمل في طياته الكلمات المتسقة التي بلغت قمة
الجمال.

حكم الترجمة التفسيرية

ولا تجوز ترجمة القران ترجمة تفسيرية، اذ ان في القران
وجوهاً بلاغية: كالتنكير والتعريف، والتقديم والتأخير، والذكر
والحذف... فلا تستطيع آية ترجمة كانت أن تعبر تعبيراً دقيقاً عن
تلك المضامين، لانها لا تحمل تلك الخواص، فلا تسمى الترجمة
التفسيرية قرأنا، اذ القران لا يكون قرأنا الا بلفظه العربي ومعناه.

(١) مناهل العرفان ١١٢/٢.

شروط الترجمة التفسيرية

- ١- أن تكون الترجمة متمشية والاصول المقررة في الشريعة الاسلامية وعلوم العربية.
- ٢- أن يكون المترجم دقيقا في ترجمته، بعيدا عن الاهواء الضالة والعقائد الزائغة.
- ٣- أن يقوم بكتابة القرآن أولا، ثم يكتب تفسيره بعده، ثم يتبع ذلك بترجمته التفسيرية، لكيلا يتوهم متوهم أن هذه ترجمة حرفية للقرآن^(١).

المذاهب الاسلامية وترجمة القرآن

ذهبت المالكية والشافعية والحنابلة والحنفية في الراجح- الى حرمة ترجمة القرآن الى أية لغة كانت ، لا فرق بين أن تقرأ الترجمة في الصلاة أو في غيرها، اذ القرآن لا يكون قرأنا إلا بالنظم والمعنى معاً، والترجمة تقوت النظم فيخرج الكلام عن الإعجاز . واستدل القائلون بحرمة الترجمة بأدلة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ سورة يوسف /٢. فإن الله تعالى ينص هنا على انه أنزل قرآنه باللسان العربي، وإذا ترجم الى لغة أخرى لا يكون عربيا. وهكذا تكون اللغة العربية ملازمة للقرآن الكريم ملازمة تامة. قال ابن قدامة المقدسي: (ولا تجزئه القراءة بغير العربية، ولا أبدال لفظها بلفظ عربي، سواء أحسن قراءتها بالعربية أو لم يحسن)^(٢) ثم قال: (فإن لم يحسن القراءة بالعربية لزمه التعلم، فإن لم يفعل مع القدرة عليه لم تصح صلاته)^(٣).

وجاء في مغني المحتاج: [فإن جهل الفاتحة فسبع آيات متواليات]... فلا يجزئ دون عدد آياتها ولا الترجمة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، فدل أن العجمي ليس بقرآن، بخلاف ما إذا عجز عن التكبير أو الخطبة أو الاتيان بالشهادتين بالعربية، فإنه يترجم عنها، لأن نظم القرآن معجز^(٤).

وقال ابن حزم (من قرأ أم القرآن أو شيئا منها، أو شيئا من القرآن في صلاته مترجما بغير العربية، أو بالفاظ عربية غير الالفاظ التي أنزل الله

(١) محاضرات في علوم القرآن ص ٢٠٨
 (٢) المغني لابن قدامة المقدسي ٣٥٠/١ بتحقيق الدكتور طه محمد الزيني/ مطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة ١٣٨٨-١٩٦٨.
 (٣) المغني لابن قدامة ٣٥١/١
 (٤) مغني المحتاج للشيخ محمد الشربيني الخطيب على متن المنهاج للنووي ١٥٩/١. الناشر: المكتبة الاسلامية.

تعالى عامدا لذلك، أو قدم كلمة أو آخرها عامدا لذلك: بطلت صلاته وهو فاسق، لأن الله تعالى قال: [قرأنا عربياً] وغير العربي ليس عربياً فليس قرآناً. واحالة رتبة القرآن تحريف كلام الله تعالى، وقد ذم الله تعالى قوما فعلوا ذلك فقال: [يحرّفون الكلم عن مواضعه]... ومن كان لا يحسن العربية فليذكر الله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ولا يحل له أن يقرأ أم القرآن، ولا شيئاً من القرآن مترجماً على أنه الذي افترض عليه أن يقرأه، لأنه غير الذي افترض عليه كما ذكرنا، فيكون مفترياً على الله تعالى^(١). وقال ابن تيمية: (فأما القرآن: فلا يقرؤه بغير العربية سواء قدر عليها أو لم يقدر عند الجمهور وهو الصواب الذي لا ريب فيه)^(٢).

أحكام تنبني على معاني القرآن

- قلنا: إن ترجمة معاني القرآن لا تعد قرآناً. وعلى هذا تنبني الأحكام الآتية:
- ١- لا يتعبد بقراءة ترجمة معاني القرآن كما يتعبد بقراءة القرآن الكريم.
 - ٢- لا تجوز قراءة ترجمة معاني القرآن في الصلاة.
 - ٣- يجوز مس الترجمة بغير طهارة.
 - ٤- لا يجوز أن نسمي ترجمة معاني القرآن بـ (ترجمة القرآن).
 - ٥- لا تستنبط من الترجمة الأحكام الشرعية.
- والحمد لله رب العالمين

(١) المحلي لابن حزم ٢/٣٠٤ منشورات المكتب التجاري/ بيروت.
(٢) إقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص ٢٠٣ بتحقيق محمد حامد الفقي الناشر: دار المعرفة/بيروت.

فهرس الموضوعات

٣	علوم القرآن
٤	مقدمة
٥	علوم القرآن
٧	القرآن الكريم
١٦	نزول القرآن
٢٣	الآية والسورة
٢٩	جمع القرآن
٣٥	أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل
٣٨	المكي والمدني
٤١	نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف
٥٥	إعجاز القرآن
٦٢	المحكم والمتشابه
٦٦	الناسخ والمنسوخ
٧٠	أسباب النزول
٧٣	ترجمة القرآن